

بيتر سلوتردايك

ندامةُ بروميثيُوس

من هِبة النّار إلى الإحراق الشامل عمدًا

ترجمة وتقديم
ناجي العونلّي

منشورات الجمل

بيتر سلوتردايك

ندامةُ بروميثيُوس

من هِبة النّار إلى الإحراق الشامل عمدًا

ترجمة وتقديم

ناجي العونلّي

منشورات الجمل

بيتر سلوتردايك: ندامةُ بروميثيُوس، الطبعة الأولى
ترجمة وتقديم: ناجي العونلّي

ص.ب: ٨٠٠٢٣ – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

Peter Sloterdijk: *Die Reue des Prometheus.*
Von der Gabe des Feuers zur globalen Brandstiftung

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تقديم

أيُّ(ت)ها القارئ(ة)،

هاكَ-هاكِ كُتيّبا «كلْبيًّا» مُخجِلا من حيث نبرتُه الكارثيّةُ اللاذعة كما من حيث أغراضُه التي تدور كلّها حول «هبة النّار» البروميثيُوسيّة وندامةِ الواهب بل استيحائه من جرّاء رعونة الموهوب وطيْشه: نحن لم ننفكّ نحرق الأرض وما تحتها، حدَّ أنّنا بتْنا كائناتٍ ما زالت تُضرم النيران وتبدّد كيفما اتّفق، موارد بواطن الأرض، فتأتي على الأخضر واليابس بلا وجلٍ ولا رويّة. فما «نعتبره حضارات حديثةً، هو في الواقع الفعليّ، مفاعيلُ حرائقِ غابيّة يُشعلها النّاسُ اليومَ في بقايا قَدامة الأرض؛ والبشريّة الحديثة هي جماعةُ حرَقةٍ يُضرمون النّار عمدا في الغابات ومستنقعات الأحْشاء».

على مسرح «العلل الفاعلة» أيّامَ النّاس هذه، 'الطاقيُّ' هو المحرّك الفعّال بإطلاق، وسلعةُ الطاقة هي منظومة الاندفاقات المكَنيّة الرهيبة التي تجمع بين قوّة العمل البشريّة وبين قوّة النيران: مكناتُ النّار هذه هي التي قلبت تأيّض الانسان والطبيعة رأسا على عقب من حيث الامعانُ في الاستخدام الاستئصاليّ

للموادّ الأوّلية ومن ثمّ، الإنتاج النازق للـ«مفاعيل الجانبيّة» الضارّة، زائدا إلى ما لا يُقاسُ مفاعيلَ فوائض تقانةِ نارٍ تقوم على تحرير الذكاء (بصفته «نيرانا باردةً» تبتكر وتستكشف وتخترع).

وتنتُج عن هذا وذاك، عدميّةٌ استخراجيّةٌ 'ممنْهَجةٌ' لا تني تسهر على ضخّ فوائد الطاقات الأحفوريّة، في منظومة الإنتاج الاقتصاديّ-الصناعيّ التي يحرّكها رأس المال المحدَث بصناعاته الاستهلاكيّة للرفاه والتسلية ولواحقها (من السياحة المشطّة المعمَّمة إلى خدمات الإيصال (الدِليفري) و'منظومات التطفّل الحفْريّ'، مرورا بالرقنمة الشاملة لعرْض السلع والخدمات، واستبداد أسواق النفط والغاز).

وإنّه لفي سياق هذا «الاحتراق الكبير» الذي قد تتحوّل فيه النيران الدائمة فوق الأرض وتحتها، إلى 'مكناتِ قيامةٍ هوجاء'، يستحضر سلوتردايْك أحدَ جبابرة اليونان، أعني بروميثيوس الجبّار الحمّالَ للنّار ومناصرَ الخلق الذاتيّ للإنسان: ينزل الجبّار من صخرة القوقاز فيعاين مشهدا غريبا تغيّرت فيه أحوال العالَم والأشياء، إذ أنّه «يجد نفسَه أمام بشريّة تكاد لا تشبه في شيء تلك التي كان قد رغب في إنجادها بأنْ وهبها النّار». لقد غدا يغطّي الأرضَ ما لا يعدّ ولا يُحصى من النيران التي لم تزل تشتعل في ملايين المواقد والأفران والصهاريج، وأمست تعيش على حساب استنفادِ بواطن الأرض ومواردها، بشريّةٌ مبرمَجَةٌ على «منوال المستهلِك الأخير» المهووس شديدا بالإحراق 'الكونيّ' (حتّى خارج النّطاق الجيو-حراريّ للأرض)، والإضرام الإراديّ لنيران الموادّ المتفجّرة.

لم يعد يكفي مع هذه العالميّة المهووسة بالإحراق والتفجير، أن يخجل بروميثيوس من نفسه من حيث تبيّن له أنّه كان يجهل فنّ الوهب وآدابَه، بل لا بدّ أن ينقلب عنده الاسْتيحاءُ ندامةً مُرّةً: لقد بان للعيان أنّ هبة النّار تحوّلت إلى «هديّة مشؤومة» باتت تتنزّل ضمن طورٍ ما لا يمكن استقراء نذُر الطامّة فيه، بل ما لا يمكن التكهّن أصلا بأشكال وبَاله: في كلّ مكان من الأرض «سحبُ دخان لا تنذر إلاّ بالويْلات... وتضع موضع سؤال وجودَ العالَم برمّته». وعليه، بدلا من 'ثمّة العالم'، 'ثمّة فقط، نيران موقَدة': هو ذا تحديدا، ما يسوِّد وجهَ بروميثيوس! ذلك أنّ ما كان في البدء، يُرجى منه حيلةً ضدّ القُصور، ينقلب قوّةَ شرّانيّة لا تنْقاس، وما كان يكوّن في الأصل، «كتلةً هيولانيّةً» منجِيةً، تحوّل إلى 'نار كبرى' تلتهم هيولى الأرض والعالَم معا.

أمّا تشديد سلوتردايك في كتيّبه هذا، على الانتقال من الخجل البروميثيوسيّ إلى الندامة البروميثيوسيّة المُرّة، ففيه إشارةٌ خاطفة إلى حقبةٍ ما بعد بروميثيوسيّة (بلا ندامة) ربّما ستقوم على ضرب بعينه من الحكمة الإيكولوجيّة، أو قل: من البراغماتيّة الإيكولوجيّة في ما أبعد من تقانة النّار واللّهب: «بعد أن خيّبت آلهةُ الأعالي آمال البشر بشكل أو بآخرَ، يبدو التحالف مع جبابرة ما تحت الأرض أكثرَ جاذبيّة». وبالفعل، أخذ يتشكّل داخل المجتمعات 'الما بعد صناعيّة' صراعٌ ظاهرٌ بين المدّخِرين الذين همُ على استعداد للتقشّف 'البيئيّ'، وبين المسرفين المدافعين عن حقّ البشر في الطيْش 'البيئيّ'. بيد إنّ أخطر ما

يتفعّل في هذا الصراع بين المنهمّين بالحزام الحيويّ للأرض وبين عملاء عولمة طاقيّة 'خبيثة'، هو بدايات فرض «ديكتاتوريّة مناخيّة» تعتمد التدخّل الراديكاليّ ضدّ نُخبة التنقيب عن ثروات بواطن الأرض. وفي هذا الصراع الجاري حول البيئة عالَما محيطا (أومفيلْتْ)، لم يعد الكائن معطى مقذوفا في أحوال تحيط به من الجهات كلّها، بقدر ما أمسى مُلقى به في «منطقة حرجة» لم تزل تخضع إلى «الثقب الأسود للمسار المركزيّ» الذي هو في خدمة ما يُتدبّر في كلّ آن، «حريقا إراديّا» يأتي على الأخضر واليابس على سطح الأرض كما خارجَ غلافها الحيويّ: لنحرّك «نهرَ العويل» وندكّ «عرشَ الجحيم»!

تلك هي أيّـ(تـ)ـها القارئ(ة)، من بين غيرها، بعضُ التلويحات 'الكلبيّة' القارسة التي ترد في هذا الكتيّب استنكارا لمنظوماتِ عولَمةٍ طاقيّة مهووسة بالإحراق، وشديدَ تنبيهٍ إلى الكارثيّ الذي قد تتأدّى إليه تلك 'النّار الكبرى' التي ما تنفكّ تضرَم في ما لا يُعدّ ولا يحصى من 'البؤر' تحت الأرض وفوقها، في أغوار براكينها وداخل أقاصي أدغالها. ذلك أنّ الوبالَ كلَّ الوبال مع هذه 'العالميّة' المفتونة بالاحتراق الكبير (إكبيروزيسْ)، هو أنّها لا تعتمد إلاّ وصيّةَ كلبيّةٍ عدميّةٍ: «من بعدنا الطوفان!» سقوطا في الهُوى هوّةً من بعد هوّة(*).

ناجي العونلّي

في ٥ فبراير، ٢٠٢٥.

(*) أنظر: تقديم، ذريّةُ الحداثة المرعبون. في الحداثة تجريبا جنيالوجيًّا مضادًّا، منشورات الجمل، الشارقة-بغداد، ٢٠٢٥.

في ذكرى برونو لاتورْ

«الحارقُ عمدا هو أكثر المجرمين نفاقًا.»

غاستون باشلارْ،

تحليل النّار من منظور نفسانيّ

(١٩٣٨)

١
«أيْضٌ مع الطبيعة»

في موضع مشهود من كتابه العُمدة **رأس المال** (١٨٦٧)، يحُدُّ كارل ماركس العملَ البشريّ باعتباره «سيرورةً قائمة بين الانسان والطبيعة»،

> «سيرورةً يضبط الانسانُ ويراقب من خلالها أيضَه مع الطبيعة موسوطاً بفعله. فهو يمثُل أمام الموادّ الطبيعيّة، بوصفه هو نفسُه اقتدارا طبيعيًّا. ذلك أنّه يحرّك القوى الطبيعيّةَ لجسديّته، ساعديْه وساقيه، رأسَه ويديْه، ليتملّك الموادّ الطبيعيّة.»(١)

إذا اتّخذنا مسافةً تاريخيّة معيَّنة، يبدو من المشروع قراءة هذا القول باعتباره تمهيدا لأنثروبولوجيا طاقيّةٍ معمَّمة وأكثر وجاهةً من ذي قبْل بالنسبة إلى الزمن الحاضر، مع أنّ عبارتَيْ «قوى طبيعيّة» و«موادّ طبيعيّة» ما زالتا تبدوان على أنّ فيهما تأثّرا إلى حدّ بعيد بروح العصر الماديّ الفظّ للقرن التاسع عشر. بيد

---

(١) كارل ماركس، **رأس المال. في نقد الاقتصاد السياسيّ**، المجلّد الأوّل: **أعمال ماركس وإنغلس**، المجلّد ٢٣، برلين: ديتس ١٩٦٢، ص. ١٩٢.

إنّ ما هو جوهريّ واستشرافيّ هو بخاصّة العبارة النصف مجازيّة «أيض» التي تمدّ جسر انتقالٍ من الظواهر البيولوجيّة إلى الظواهر الثقافيّة. ذلك أنّه من حيث يتحقّق «الأيضُ» في شكل عمل، أي البذل البشريّ المعقول للجَهد، فإنّه يخرج عن دائرة الآليّات الطبيعيّة التي تحدّد التخْليقَ أو هضمَ الكربونات والبروتينات، ليصير طورا مقوّما لما يشار إليه بحقٍّ، على أنّه «ثقافة»، أي الضِمْنُ الشامل للسلوك البشريّ القائم على التكرارات والمعرفة والرعاية.

وما لا يشدّد عليه ماركس ههنا بالتخصيص، هو أنّ تلاقي «القوّة» و«المادّة» لا يحدث فقط بتفعيل السواعد والسيقان، الرؤوس والأيادي. إذْ أنّه ينضاف إلى هذه «القوى الطبيعيّة» المحايثة لل«جسديّة»، منذ حقبة ما قبل التاريخ، عاملٌ فوْقْبدنيٌّ من دونه سيبقى ما يُزعم أنّه «الأيضُ مع الطبيعة» معلّقا كما هو الحال عند الحيوانات الأخرى، عند الصعيد النباتيّ أو الكيمائيّ-الجرْثوميّ. هذا العامل القائم خارجَ البدن هو النّارُ، أقدمُ شريك للإنسان العارف عند خروجه من دائرة مجرّد الأحوال الطبيعيّة. لقد كانت النّار في الوقت نفسه، أحد أقدم الأعْظامِ التي استطاع البشر إدراكَها بما هي تجليّاتٌ لمبدإ «القوّة» و«القدرة» المتعالي،- مجازا إلهيًّا ابتدائيّا، إلى جانب الريح والبرْق والشمس.[٢]

---

(٢) روبرتو كالاسُّو، الجمْرُ، مونشن، ٢٠١٥. [لا يعني ورود عناوين المراجع، معرَّبةً أنّها قد نُقلت جميعا إلى العربيّة= المترجم].

لم تكن مطابقةُ الموادّ الطبيعيّة على الحاجيات البشريّة بالدلالة الصارمة، ممكنةً إلاّ من خلال إدراج النّار ضمن دائرة الاستعمالات البشريّة. والحال أنّ النيْء كان يشير في «المجتمعات» المبكّرة لما بقي مرتبطا بالطبيعة، كان المطهوّ قد صار جوهرَ المستوعَب وما يحوَّل بالقوّة الطبيعيّة للنّار إلى استعمال بشريّ، - كما بيّن ذلك كلود لفي-شترواس في إحدى دراساته الميثولوجيّة. من هذا المنظور يحقّ للمرء أن يؤكّد أنّ التقنية الجوهريّة كانت دوما، إلى جانب صنع الأسلحة الابتدائيّة من حجر لغاية الصيد والحرب، تقانَةً ناريّة. وبما أنّه يجدر في مثل هذه المسائل، اعتماد النبرة الماركسيّة، سيتعيّن استكمال هذا القول بالقضيّة التالية: كلّ تاريخ للبشريّة السابقة هو تاريخ تطبيقات للنّار. إنّه ماركس الشابّ هو الذي كان قد كتب في رسالته، أنّ بروميثيوس من حيث أخذ النار من موكب الشمس السماويّ ليهبه الإنسانَ، هو «أنبلُ القدّيسين والشهداء ضمن الروزنامة الفلسفيّة»[٣].

في البدء تجلّت قوّةُ النّار الاستيعابيّة بكيفيّة مقدَّمة، في استغلال الأطعمة، فالنّار هي التي تجعل البشر يستسيغون غنيمة الصيد؛ ومن دون ألخيمياء الحرارة لا ينجح تحويل الحبّة الغليظة إلى خبز. ومن ثمّ، استعمال النّار يكوّن أوّل 'س' في

---

(٣) كارل ماركس، **في الفرق بين فلسفتيْ ديموقريطس وأبيقور في الطبيعة**، ضمن: **أعمال ماركس وإنغلس** ٤٠، برلين ١٩٦٨ (١٨٤١) ص. ٢٥٧-٣٧٣، ص. ٢٦٣.

صياغة «قوّة العضلات زائدا إلى س» التي تصف تأيّضَ البشر مع الطبيعة بواسطة العمل. وهو يكوّن الفارق- الطاقيّ الذي يتقرّر في الأصل فرقا بين نيء ومطهوّ؛ وفضلا عن ذلك، تفصل النّار المعدنَ عن الكتلة المعدنيّة الخامّ وتهيّء لمطرقة الحدّاد سانحةَ تحويل الحديد الحامي إلى نصال مسنونة.

تحيل عبارتا «قوّة» و«مادّة» على مفهومين يونانيّين قديميْن، هما «ديناموس» و«هيلي». حتّى عند هوميروس كانت «هيولى» تدلّ بلا أدنى لبس، على أشياء من مثل الخشب والأجمة والغابة، في حين أنّ الخشب القديم قد صار عند أرسطو إلى «هيولى» بإطلاق، المادّة التي يُقدّ منها كلّ شيء، والمقابل الكليّ للـ«صورة» (مورفيهْ، إيْدوسْ). ويبقى لافتا أنّ مفهوم المادّة في الفيزيقا والميتافيزيقا الكلاسيكيّتيْن يحتفظ على الأقلّ من حيث الأثَلُ، بصدى بعيد للمحروق الأوّل.

يبقى نظامُ الأيْض الذي طبع الحضارات الانسانيّة القديمة، إلى حين إخبار آخرَ وعلى مرّ آلاف السنين، محدَّدا بضيق فضاء التحويلات الواسعة وضآلتها النسبيّة. ما زال صانعو النّار من الصيّادين وصائدي السمك وجانيات الثمار، في كلّ مكان تقريبا، غيرَ قادرين على تقويض القدرة على التناسل التي لفرائسهم، وأدوار نموّ بيئتها النباتيّة. بل يتطوّر بالأحرى منذ وقت مبكّر ضربٌ من الشعور بالتناظر في العلاقة بين الانسان والطبيعة؛ ويتجلّى في الدافع القبْدينيّ إلى تقديم خدمات إحيائيّة وقرابين أو عطايا لعالَم محيطٍ مكوَّن من الأرواح والأسلاف والقوى النورانيّة. ومن جانب آخرَ، يعتبر علماء الحفريّات منذ

بضع سنوات، أنّه قد ثبت أنّ القبائل التي هاجرت في أستراليا منذ حوالي خمسين ألفَ عام وتوصف اليومَ بأهل البلد الأصليّين، كانت القبائل التي أنتجت أشكال الصيد عندها، انقراضَ الحيوانات البريّة المحليّة. ومن ثمّ، لن يكون مناسبا أن نحمل إجماليًّا على أسلاف الانسان الراهن، شيئا من قبيل الوعي بروابط المنظومة البيئيّة أو حسّ المحافظة على «الموارد». فالعظام التي اكتُشفت على سفح صخرة سولوتْريه غير بعيد عن مدينة ماكون في البورْغونْي، تدلّ على أنّ صيّادي العصر الحجريّ كانوا يطاردون هناك على مرّ آلاف السنين، جيادا برّيةً ويقتادونها إلى قمّة الجبل حيث يدفعها الهرعُ إلى السقوط من الجرْف في الخواء؛ وإذا لم تكن الحيوانات قد لقيت حتفها هناك على الفوْر، كانت فرقة الصيّادين تُجهز عليها وتقضُبها، - كانت الغنيمة تضمن توفّر اللحم لأيّام عدّة، لكن لم يكن من الممكن بعدُ اعتبارُ مقاييس حسن معاملة الحيوان. ذلك أنّ الحجرة المتكوّنة من عظام الجياد المتحنّطة عند سفح الجبل، تشهد على عصر برمّته من «اقتصاد» التبذير الابتدائيّ. ولا يمكن البتّة إدراجُه ضمن الأساطير الدارجة التي تتعلّق في العصر الحجريّ بوحدة الانسان والطبيعة. فحيث تظهر قواعدُ تستهدف بشكل صريح، صونَ المحيط، من مثل قوانين حماية الغابات التي سُنّت في الصين القديمة، أو أوامر المحافظة على الماء المتضمَّنة في دساتير الميلفي التي أصدرها الإمبراطور فردريك الثاني (١٢٣١)، نعاينُ اللبنات الأولى لذكاء إيكولوجيّ يعود إلى حضارة متقدّمة.

٢

عملُ العبيد والعملُ بعامّة

لقد حلّ محلّ الليل الطويل لما قبل التاريخ، غبشُ الزمن التاريخيّ، حين اكتشف صيّادو وجانيو العوالم المتقادمة، بكيفيّة مشحونة بالتبعات، أنّ صيد الفريسة الحيوانيّة يمكن أن يُوسّع إلى صيد الغنيمة البشريّة. وأمّا نتيجة هذا التوسيع فهي إقامة نظام الرقّ مؤسّسةً بقيت سارية لوقت طويل بالتوازي مع تدجين الحيوانات المفيدة. حتّى العلاقة بالحيوانات كانت قد مرّت في ذلك الزمن البدئيّ، من الصيد بغاية القتل إلى التدجين بغاية الاستغلال، انتقالا له تبعات لن تمّحي أبدا ضمن الزمن التاريخيّ. مذّاك يمكن تدقيقُ صياغة الأيْض الابتدائيّة: «قوّة العضلات زائدا إلى س». في ما سيتبع هذا كلّه، لا بدّ من تمييز القوّة العضليّة الخاصّة (قوّة السيّد) من القوّة العضليّة الأجنبيّة (قوّة العبد أو الحيوان المستعمَل). وينتج عن هذا التمييزُ الثاني الذي يكوّن فرقا خارجَ الرمزيّ. إلى جانب زائدِ تقانة النّار، يظهر في المجتمعات المبكّرة لمربّي القطعان ومجتمعات الاسترقاق الأولى، فائض لافتٌ للقوى العضليّة التي يمكن

توجيهها؛ إذ أنّه يمكن استخدامُها في كلّ عمليّات الإنجاز الممكنة التي من جنس الـ«عمل»، وبخاصّة في دائرة زراعة الحقول البادئة وفي سياقات خدمات اقتصاد القصور، ولكن أيضا في تشييد المعابد وقبور الأمراء.

حيث ينمو أفقُ ما يعني على هذا النحو، «العملَ» الأصليّ لعضلات أجنبيّة، يشهدُ التدبير الطاقيُّ للمجتمعات، وبالأحرى لمشيَّدات دولة الأزمنة الأولى، توسّعا كبيرا. ومع هذا التوسّع تظهر الحضارات الأولى المتقدّمة جدّا في شكل بنى فوقيّة للجهد المكثّف الذي يبذله العبيد. كذلك أمكن أن يحدث التوهّم الخدّاعُ بأنّ «العمل» العامَّ باعتباره مجموعَ الأداء العضليّ للسُكّان، كان قد احتلّ المرتبة الأولى في الموازنة الطاقيّة للدول الاستبداديّة، في حين ستتخلّف عنها إلى مرتبة تابعةٍ، مساهماتُ دائرة المحروقات. في واقع الأمر، ينتُج مجموع الصرف العضليّ داخل منظومة دولةٍ أو إمبراطوريّةٍ زراعيّة مبكّرة، عن جهود العبيد، إمّا لأنّ هذه الجهود تبذلها ما كان يسمّيه أفلاطون بـ«الطبقة الثالثة»، في سبيل تحقيق النافع والضروريّ (وهي فئة تضمّ أيضا الحرفيّين، بنَاوْسويْ، دِمْيورغُويْ)، وإمّا لأنّها جهود يبذلها «الهمجُ» الذين أُخضعوا ويتناسب معهم بالطبع في نظر الفيلسوف، كونُهم عبيدا، بمعنى أنّ «همجيّتهم» تعني انعدام العقل.

أمّا الحدّ الأرسطوطاليسيّ للعبد بصفته «آلةً حيّة» فتبيَّن مع ذلك أنّه في هذا السياق، قد كان من البداية غيرَ كاف: فالمسألة لم تكن تتعلّق بصفات الآلة الميكانيكيّة التي للعبد، بقدر ما

كانت تتعلّق بتقويمه مجموعةَ عضلاتٍ مجسَّمة، ومن ثمّ بقابليّة استخدامها مكنةَ قوّةٍ محرّكة. لم يبدأ تاريخُ المنشآت المحرِّكة ميكانيكيّا (التي تقترن فيها منظومةُ قوّةٍ محرِّكة بمنظومة إنجاز)، مع الطواحين المائيّة للعصر الوسيط والطواحين الهوائيّة التي نشّطت المشاهد الريفيّة في شمال أوروبّا منذ القرن السادس عشر (ستكون هولندا لوحدها قد امتلكت منها أكثر من عشرة آلاف، والرايش الألمانيّ ما يناهز عشرين ألفاً مع نهاية القرن التاسع عشر)، ولا أيضا مع الآلات البخاريّة التي تجاوزت مع منتصف القرن التاسع عشر، المنظومات الطاقيّة القديمة، بل بدأ قبل ذلك بآلاف السنين، مع استعمال بِيُوآلات بشريّة تُنتِج من حيث تحرّكها العضلات وتأتمر بالأوامر لتحقيق المفاعيل المنشودة.

من منظور قانونيّ، تقوم العلامة المميِّزةُ لمنزلة العبد، على غياب القدرة على أن يتصرّف في نفسه كما يريد. فالعبد والعبْدة هما أيضا طبقا للتصوّر القديم، مخلوقان يشبهان البشر ولكنّهما يُعتبران عند مالكيهما، آلتيْن تعطّل عندهما بكيفيّة مّا، اشتغالُ زرّ الـ«أنا». لذلك تعوزُهما القدرةُ على أن يمتلكا نفسيْهما ويسودانهما من تلقاء نفسيْهما. يبدوان «بالطبع» على أنّهما مبرمَجان ليقودهما آخرون، إمّا في إطار مستخدَمي الدولة، أو في سياق تدبير البيوت حيث يكون العبيد مباشرة رهنَ إشارة الأسياد. وتبعا لمدوَّنة جُستنيان لعام ٥٢٩ يمكن أن يتّهَم عبدٌ هرب من سيّده بجرْم أنّه قد «سرق نفسَه» (فورتومْ سُوِي)، وهو جرمٌ يشي بمفارقة من حيث أنّ عين اللاشخص الواحد السفيهَ قانونيًّا، يكون السارق والمسروق.

لم يكن بإمكان العبيد أن يملكوا أنفسهم ملكيّةً نافذة بكيفيّة شرعيّة إلاّ بواسطة فعل العتْق القانونيّ،- حرْفيّا: بواسطة «العتق باليد» من لدن السيّد سابقا. ومن الممكن أن يفضي هروب الكثير من العبيد إلى وضعيّاتٍ حرّية نسبيّة، بواسطة فعل شرْعنة بعْديّة،- إمّا من خلال منْحٍ عامّ للحقوق المدنيّة (في تماثل مع المرسوم الأنطونيّ ٢١٢)، أو بواسطة محاكاة دينيّة للـ«تحرير» المدنيّ. وبهذه المحاكاة ينفصل العبد عن سيّده الأرضيّ، ليؤدّي القسمَ طاعةً للمسيح بصفته سيّدَه الجديد. تبلغ المفارقةُ ذروتَها مع نصّ لوثر **في حريّة المسيحيّ** (١٥٢٠)، من حيث يرتبط الانفصال عن كلّ سيادة خارجيّة مع عبوديّة طوعيّة ضمن خدمة المحبّة،- والحال أنّ ذنْب الطاعة إزاء السلطة الدنيويّة يستنتجه لوثر بواسطة حجّة فيها تجديف كامن، هي أنّ هذه السلطة تكون أيضا من سلطة الربّ. في هذا السياق، تسمية بولس لنفسه «عبدا للمسيح»، لها من حيث البرنامج، تبعاتٌ كثيرة ('دولوس كريسْتو'، **في الرسالة إلى أهل روما**، ١، ١، وفي أربعة مواضع أخرى[1])؛ وتتضمّن بالقوّة تبريرا لجمْع من الخدّام في بيت

(١) يمكن أن يُعتبر المحدثون في معظمهم، أخلافا وأنجالا لعبيد هاربين أو أعيد تأهيلهم. مع إعلان حقوق الانسان والمواطن الذي نُشر في ١٧٨٩ وعدِّل بعد ذلك في عدّة مناسبات، يُشهَد لهم بأنّ لهم الحقّ في أن يسلبوا أنفسَهم بأنفسهم، لأنّهم لو كانوا من قبْلُ عبيدا، لتخلّصوا من أنفسهم بواسطة استلاب غير مشروع. ويستبق شعارُ باراسِلْسوسْ: «من يستطيع أن ينتمي إلى نفسه لا ينتمي إلى أحد غيره»، المبدأ الحديث الناظم الذي مفادُه أنّ الكهل هو بالطبع كائن بوسعه أن يكون حرّا، وأنّ وُلْدَ الانسان ينبغي أن يربّى على منوال إمكان أن يكون حرّا.

سلطةٍ ما وراثيّة،- وهذا ما يفسّر لماذا يمثُل الانسان الغربيُّ من جهة ما هو مسيحيٌّ، دوما بصفته خادما لسيّديْن.

تصدق على مَرّ عصور المجتمعات التي تقوم على الاسترقاق، صياغةُ أيْضٍ جديدة: سلطة الأمر والنهي زائدا إلى حظيرة آلات حيويّة زائدا إلى 'س' تقانة نار. وكان التراثي الكثيف لجحافل العبيد العاملين يخفي دوما واقعةَ أنّه حتّى مع ذروة انبساط قوّة الطاقة العضليّة، كانت لواحق تقانة النّار تُنتج في الثقافات، فائض قيمة يساوي على الأقلّ، تلك القوّة ضمن نظام أيض الثقافات المتقدّمة التي بلغت أشُدَّها،- وكانت قد فعلت هذا في شكلٍ ما لا يعدّ ولا يحصى من مواضع استخدام النّار التي كانت تُنتج المفاعيل المنشودةَ، في المداخن والمواقد والأفران وورشات الحدادة ومصانع المعادن وأُتُنُ الخزف والحمّامات. يصدق هذا بخاصّة على حضارات العصر البرونزيّ حين صار ضروريّا صرفُ قدْر معتبَر من المحروقات مع صهر القصدير والنحاس وتحويلهما إلى مزيج يمكن أن يُستعمل في صناعة الأسلحة. بيد إنّ أرسطوطاليسَ كان قد أخرس الخشبَ بما هو مادّة تَعدم الصفاتِ، فقبْل ابتكار علم الغابات الألمانيّ في القرن التاسع عشر، لم يكن للغابة وزنٌ يُذكر،- والمفردة الغابيّة الأساسيّة «استدامة» (التي نحتها هانس كارل فونْ كارلوفيتْسْ في ١٧١٣ في كتاب **الاقتصاد الغابيّ**) لم تجرِ على الألسن إلاّ منذ بضعة أعوام، في تلازم مع زوجها الإنجليزيّ «سوسْتِيْنبلِتي». بهذه المفردة يهمس أعضاءُ الشركات التي تقوم على الطاقات الأحْفوريّة ببعض عرفان للمعرفة القديمة

بالغابات، مع أنّهم لم يزالوا يجهلون على نطاق واسع، دلالتَها الفعليّة: أنّه لا يجوز طبقا لمبدإ التجدّد الدائم، أن نقتطع من المدّخرات القائمة إلاّ ما يمكن تعويضُه بكيفيّةٍ مطابقة، أي بلغة علم الغابات، «الاستنبات».

حين رُفع فوق مرتبة العبيد والخدّام والمطيعين، أناسٌ لهم قوّة الأمر والنهي، تطوّرت في لغات الإمبراطوريّات شكليًّا، وظيفةُ النداء وتحوّلت إلى أمر مُلزِم. وتتميّز طبقة الأسياد بالقدرة على استعمال جملِ أمر ونهيٍ فعّالة من حيث تكون مشحونة بالدلالات. ويُلقَّن العبيدُ عادةً الاستجابة إلى الأوامر بالطاعة، بل استباقها من حيث استعدادُ الامتثال لها: ومن ثمّ التحيّةُ اللاتينيّةُ «إغو سومْ سرفوس تُوُو»، التي أنتجت مفردةَ «سرفوسْ» في ألمانيّة الجنوب، وبالإيطاليّة «إيو سونو إلْ سكايفو تُو»، أي «تشاوْ»!،- وإن كانت العبارتان لا تلتقيان اليوم إلاّ في سياق تبادل المجاملات بين الأنداد. وكان أرسطوطاليس قد شدّد بشيء من التفخيم على أنّه لا يمكن أن يوجد «كيانٌ مشترَك»، «رباطٌ» بشريٌّ، من دون زوج الهيمنة والمهيمَن عليه (أرخيْن وأرخِسْتايْ). وسيتعيّن على المسيطِر بالطبع أن يكون قادرا على إعمال الفكر (ديانُويا)؛ وأمّا المطيع فيقع جهةَ ما يفتقر إلى التفكّر. لكن، لا يصير عبيدا بالتمام إلاّ أولئك الذين يبقى وجودهم محدودا كليًّا بالبدنيّ (سوما)[٢].

---

(٢) أولوفْ جيغون، «العبوديّة عند أرسطوطاليس»، ضمن: محاورات حول العصر القديم الكلاسيكيّ ١١، ١٩٦٥، ص. ٢٤٧-٢٧٦.

فالطاعة تعني بعامّة، هيئةَ الخضوع إلى برامج مجهودات عضليّة(٣).

لقد بقي الاقتصاد القائم على الاسترقاق، وبُناه الفوقيّة الاقطاعيّة، مثبّتا داخل حدود ضيّقة نسبيًّا، من حيث أنّه لا يمكن إحراق كلّ شجرة إلاّ مرّةً واحدة (والحال أنّ لمحاصيل الحقول وتيرةً سنويّة ترتبط بقوّة نموّ التربة). فلكي تنمو الشجرةُ من جديد لا بدّ من سنوات عدّة. ومن ثمّ، يعدّل بطءُ إنتاج الخشب شططَ الأسياد، - وأمّا الندرة النسبيّةُ لفوائض استغلال التربة في الزراعة والبسْتنة، فتفعل الباقي. وكذلك لا يتركُ هامشا كبيرا لخزائن الأمراء، بطءُ تجارة السلع التي تخضع إلى الضرائب وتُتبادل ضمن دوائر قريبة وبعيدة. فقانون الندرة الذي ما زال ساريا، يذكّر أيضا المستبدّين بأنّهم إذا انساقوا إلى رغبتهم في ركوب المحال، لا يمكن أن ينتهي هذا إلاّ إلى خراب.

(٣) ومن بين الذين يخضعون إلى تلك البرامج (التي غالبا ما يختصّ بها العبيد)، الحطّابون والفحّامون والوقّادون والحدّادون الذين يتنزّلون بوضوح، عند الحدّ الفاصل بين الاقتصاد العضليّ واقتصاد تقانة النّار. وانطلاقا من بداية عصر الفحم، في القرن الثامن عشر، عمّال مناجم الفحم هم الذين يحتلّون المنزلة الوسطى. فهم يكوّنون إلى جانب رصّافي الحروف وعمّال الأفران العالية في صناعة الحديد والفولاذ، نخبة البروليتاريا البطوليّة الكلاسيكيّة.

٣

ميثةُ الحرّية وحضارةُ تقانة النّار

من ميثات الحداثة المفضّلة أن يُروى التاريخُ الخاصّ باعتباره سيرورةَ تحرّر متدرّجةً. بينما يفتتح روسّو مصنّفه في العقد الاجتماعيّ (١٧٦٢) بالحكم أنّ «الانسان قد وُلد حرّا، ومع ذلك، هو في كلّ مكان مقيَّد بالأغلال»، تتّخذ الصروفُ التاريخيّةُ في أوروبا مجرًى كما لو أنّه كان تعيّن التصديقُ بجملةٍ لم تُدوَّنْ قطّ بشكل بيِّنٍ وتتضادّ من حيث النزعةُ مع حكم روسّو: «في كلّ مكان، الانسان مكبَّل في الأغلال، ومع ذلك تستيقظ في كلّ مكان، قوى تعمل على إقناعه بأنّه قد وُلد حرّا». وتصير هذه الجملةُ ذاتَ مصداقيّة، حالما تظهر ضمن الحضارات التي بسبيلِ التحديث، أشكالُ حدْسٍ لكون الانسان غيرَ مرغَم على أن يبقى أبدَ الدهر، تابعا عاجزا للنُّدرة.

لكن في البداية وبالنظر إلى سوانح الحريّة المتجدّدة، تتفاقم تجارب العوَز. في واقع الأمر، حالما نتعقّب الفحص عن التاريخ الفعليّ لما يُزعم أنّه حريّة، يظهر في المقام الأوّل ومنذ بدايات الأزمنة الحديثة، جانبُها المظلم. فحتّى وإنْ انحلّت في

الغرب الأوروبيّ الذي كان قد سمّي استعاديًا وفي غالب الأحيان بالتشديد على نبرة محافظة زائفة، بـ«الغرب المسيحيّ»، علاقاتُ الاسترقاق الرسميّة التي على طريقة روما المتأخّرة، وانصهرت في شتّى أشكال الانتماء إلى الأسياد المالكين، - سواء حُدّدت هذه الأشكال أو لم تُحدّد باعتبارها «نظامَ سُخرة»، فإنّ الأحوال الاقتصاديّة لمعظم الناس بقيت بعامّة، هشّة حدّ أنّ ما لا يحصى ولا يُعدّ من الأفراد لم يستطيعوا التمتّع بوضعيّة حرّيتهم الظاهرة. وكان هذا يصدق بخاصّة، حين كانوا من بين أولئك البائسين الذين كان قد انتزعهم من أحوال حياتهم الريفيّة التقليديّة، تسويرُ مساحات الرعي وتسييجُ الغابات التي كانت في السابق محلّ استعمال مشترَك. بعد صعود المدن في العصر الوسيط، والمَانوفَكْتُورات في بداية الأزمنة الحديثة، والمصانع في القرن الثامن عشر، وجد الكثير من الكهول الذكور أنفسَهم في وضعيّةٍ ما كان التأريخ الماركسيُّ قد وصفه بوضعيّة «العامل الحرّ». لم يكن العمّال الذين من هذا الرهط، تابعين فعليًّا، إلى سيّد في علاقة استرقاق مباشر، ولكنّهم لم يكونوا يستطيعون استغلال تملّكهم لأنفسهم الذي كان مصدرَ سعادة إلاّ على نحوين: إمّا «انخراطا في الشرْكة» متسكّعين، متسوّلين، متطفّلين، لجوجين في السؤال، نشّالين، وما إلى هذا من الوضعيّات في وسط شبه إجراميّ أو أجراميّ كليًّا كان يعِدُ برزق مضْن على حافّة الفقر، - وبعض هذه التنويعات للـ«حياة الحرّة» كانت قد أُدرجت ضمن حوليّات التاريخ الاشتراكيّ، تحت مسمّى «حثالةُ القوم»؛ ووجدت شاعرَها في شخص فرونسوا

فييّون (١٤٣١-١٤٦٣)، بشيرِ شعر الأخابيث الذين يستحقّون الشّنق، في بداية الأزمنة الحديثة. وإمّا أن يبيع المرءُ نفسَه، أو يبيع «قوّة العمل» التي كان يمتلكها، أيْ بعامّة، قدرته على الإنجاز العضليّ-الميكانيكيّ مقترنةً بمهارة عمليّة مكتسبَة، لربّ عملٍ أو صناعيّ أو «مشغِّل» أو «رأسماليّ» لـ«يستحقّ» أجرا مقابلَ العمل المنجَز، كان يجوز أن يُقال فيه بكثير من التجاوز، إنّه مورد رزق يُتيح العيش. ويحيل اسم «بروليتاريا» على أنّ العمّال الذين في مثل هذه الوضعيّة، لم يكن بمقدورهم قطّ أن يكون لهم مُلك خاصّ، بل لم يكن بوسعهم إلاّ أن يُنجبوا أخلافا (برُولِسْ)، من حيث أنّ أجورَهم الزهيدة كانت بعامّة لا تكفي إلاّ مجرّدَ محافظة العمّال على بقائهم وبقاء ذويهم؛ أمّا نساء البروليتاريا فكنّ في غالب الأحيان، حبيساتِ تبعيّةٍ نصف استعباديّةٍ بإزاء الرجال الذين كانوا هم أنفسُهم تابعين لأجورهم.

وعلى الأرجح، ما كانت هذه الأحوال المشروطةُ بزراعة طاغية وصناعات يدويّة متعدّدة ومنظومة مانفكتوريّة هامشيّة، لتتغيّر أبدا، لو لم يَقطع مجرى التاريخ، عاملٌ جديدٌ، قالبُ لعبةٍ، له فعاليّةٌ تفجيريّة. مع ابتكار المكنات الاحتراقيّة التي كانت تحوّل ما كان يسمّى «قوّة البخار» إلى طاقة حركيّة، كان قد انفتح منذ نهاية القرن السابع عشر، ثمّ كليًّا، إلى أواخر القرن الثامن عشر، أفقٌ جديد. مذّاك أخذ يظهر نظامُ أيْضٍ مبدَّلٌ راديكاليًّا. وبدا أنّه لم يعُد حقيقيّاً أنّ المرء لا يمكن أن يقطع شجرةً إلاّ مرّة واحدة، وأنّه لا يمكن أن يحرق حطبَها إلاّ مرّةً واحدة. من عمق الأرض بدا ما لا يعُدّ ولا يُحصى من الشجر

باسقا على السطح، شجرا كان بالإمكان أنْ يُحرق باستمرار، ومع ذلك كان ينبُتُ إلى ما لا حدّ له. فكان يتدّفق في شكل الفحم الحجريّ، على حجرات الاحتراق داخل المكنات التي أشعلت فتيل الثورة الصناعيّة، فائضُ طاقة كان من البيّن أنّه قد تخلّص من قانون التجدُّد البطيء.

منذ تلك اللحظة، لم يعُد ما يُحرق مجرّدَ خشب الغابات التاريخيّة الذي نما في أثناء عصور البشريّة، ولا خُثّ التاريخ المتأخّر للأرض الذي صنع مع القوّة الهوائيّة، ساعاتِ مجد هولنْديّي القرن السابع عشر على اليابسة وفي عرض البحر[1]، ولا أيضا الحطب الخشبيّ الذي ينتجه الحطّابون وكان له بخاصّةٍ منذ وقت طويل، دورٌ في صهر الحديد داخل مانوفكتورات المعادن. في شكليْ الفحم الحجريّ وفحم الكوكْ، وبعد ذلك أيضا منذ مطلع القرن العشرين بأكثر قوّة، في شكل ظاهرة النفط، كان الخشبُ المحوَّل وبقايا أخرى من الحياة النباتيّة، قد تغلغلت في تأيُّض الانسان والطبيعة، أو لنقل إذا استعملنا العبارة السعيدة لرائد التأريخ الإيكولوجيّ للنبات، رولف-بيترْ زيفِرْله (١٩٤٩-٢٠١٦): تغدو الغابة التحتأرضيّة (هو ذا عنوانُ مصنّفه) لتاريخ الأرض النباتيّ موضوعا لاقتصادٍ غابيّ هجين،- اقتصاداً يستقرّ من حيث يستغني عن الغرس والاستصلاح الدائم للغابة، ويراهن كليًّا بدلا من هذا وذاك، على أشكال الاستخراج

(١) سيمون شاما، فائضٌ وظاهرٌ جميل. مقدّمة في الثقافة الهولنديّة في القرن الذهبيّ، شِنْلِرْ ١٩٨٨.

الميكانيكيّة والطرق المتنوّعة لاستغلال أفقيٍّ للموارد التي في باطن الأرض. كذلك تُستَعاد الأدغالُ الأصليّةُ للأزمنة الغابرة بعد تحجيرها وتسييلها، في الزمن التاريخيّ وتُحيَّن ضمن الآن والهنا الصناعيّيْن، بواسطة ما لا يعدّ ولا يحصى من النيران الموقدة للمكنات. ما نعتبره حضاراتٍ حديثةً، هو «في الواقع الفعليّ»، مفاعيلُ حرائقَ غابيّة يُشعلها أناسُ اليوم في بقايا قدامة الأرض. والبشريّة الحديثةُ هي جماعةُ حرَقةٍ يُضرمون النّار عمدًا في الغابات ومستنقعات الأخثاء.

إنّه بعد الالتفات خَلْفا إلى تجرُبة حمّالة للأوهام تتعلّق بلانهائيّةِ تَقانةِ نارٍ افتراضيّة، يمكن حينئذ فقطْ أن يتكوّن ضمن الطبيعيّات المحدَثة، مفهوم كليٌّ للطاقة أو القوّة،- وفيه بالطبع، سهمٌ جوهريٌّ لتصوّر الرابط بين الحرارة وضغط التمدّد والحركة. إذ إنّه مع اكتشاف قوّة الكهرُمان أي الكهرباء في مطلع القرن الثامن عشر (مع كالفاني وفولتا ودو فِيْ وكولُنْمب وأمبيرْ من بين غيرهم)، كما الكهرومغناطيس في القرن التاسع عشر (مع أورْشِتْ وهِرْتس وماكسويل من بين غيرهم)، ظهرت على مسرح العلل الفاعلة، عواملُ إضافيّةٌ تشتغل اليومَ بصفتها واسطةً شبه محايدة لأنماط القوّة جميعا. وما كان يسمّى عند اليونان القدامى 'إنِرْغيا'،- ما هو بالقوّة الذي للكائن الحيّ، والمهمّة الكامنة فيه، أي الصنيعُ الذي يُتدبَّر من الداخل، إرْغونْ، ولا سيّما انبساط الاستعدادات لأن يصيرَ بحياله، إنّما يتخارج قوّةً فاعلةً بإطلاق، كمٌّ «طاقة» بما هو كذلك. ومن ثمّ، لم تعد القوّة

الحديثة تحتاج إلى حسّ باطن يوجّهها. وبدلا من إِنـ-رْغِيَا، تكفي الـ«إِرْغيا» المحض، قوّة الإنجاز خلوا من إملاءات التوجيه. وكما هو الحال طبقا للتشخيص الماركسيّ، وحدها الضروب الحديثة للتآيض البشريّ مع الطبيعة هي التي أنتجت التجريدَ «عملٌ» بما هو كذلك، على صعيد الظاهرات، ضمن منظومة المصانع التي يحرّكها رأسُ المال: بما هي عملٌ بعامّة، عملٌ «وحسب»، تتحرّر عبر المنظومة الأيضيّة للعصر الفحميّ، القوّةُ بعامّة، القوّةُ وحسب، وتحديدا تحت مسمّى «طاقة»، بما هي أحد المفهومات الناظمة للفهم الحديث «للواقع الفعليّ». ومن ثمّ تتدفّق من حيث تطبع الحضارة الجديدة برمّتها، ضمن النزعات التعبيرية والتكثيفيّة والإحيائيّة والديناميّة(٢) بتلويناتها جميعا. حين سيتعلّق القول مستقبَلا، بالزيادة والتكثير والنموّ (في دلالته غير الزراعيّة)، يؤدّي دورا جوهريّا طاقيُّ النظام الجديد، الذي يُعتبر فعّالا بإطلاق، ومواتيا للأحلام، ولكنّه في الوقت نفسه معادٍ للحدود.

وعليه، يُسمّى واقعا فعليًّا ما ينطوي على القوّة؛ وما يمكن أن يتفعّل ويتحقّق إنّما هو ما ينقل القوّة إلى آخَر(٣). والقوّة التي

---

(٢) أنظر فيما يتعلّق بما سمّي «الاختلال الديناميّ» في تاريخ الأفكار في أوروبّا القديمة، هرمان شْميتس، أدولف هتلر في التاريخ، بونْ ١٩٩٩.

(٣) ليس اتّفاقًا أنّ المفهوم شبه الفيزيائيّ «ميْل»، - نقل القوّة بواسطة صدمة مباشرة، يتقدّم مفهومَ «عمل» (إذ يُتصوّر بصفته مجموعَ المفاعيل المنتَجة على جسم)؛ أنظر: ميكائيل فولف، تاريخ نظريّة الميْل. مباحث في أصل الميكانيكا الكلاسيكيّة، فرانكفورت على الماين، زوركانمب ١٩٧٨. وأمّا مفهوم العمل المحدَثُ فيبقى من جانبه، مقيَّدا بمجال

تندرج ضمن العلامات، تُنتج العبارة. ومن ثمّ، يبدو العالَم على أنّه مشغَلٌ كبيرٌ لقوى فعّالة. وبما أنّ العمل من جهة ما هو مفهومُ إنجاز مجرّدٌ، كان يمثُل بكيفيّة مرئيّةٍ، في شكلِ مالكه، كان مستلاحا تأكيدُ وجود «طبقة عمّال» باعتبارها عِظَمًا اجتماعيّا يُعايَن خُبريّا. وكان توصيف هذه الطبقة بـ«البروليتاريا» اختيارَ تسمية فيه مجازفة وقوّةُ إيحاء متزائلة، - وتعود المجازفة إلى أنّها تسمية مثقلةٌ بمضمَّنات بيوسياسيّة لم تُسبَر بعدُ(٤). ولمّا كان «التجريدُ الفعليّ» يتحقّق عينيّا، ضمن منظومة اقتصاديّة، فإنّ المرء لا يتعجّب من ظهورِ كثرة «العمّال» على الركح الاجتماعيّ، بكيفيّة حاقّة وملموسة ومرئيّة. ولم يكن يُعوز هذه الكثرةَ، أي البروليتاريا التي تُدعى الطبقة الشغّيلة، إلاّ الوعيُ الطبقيُّ المطابق، لكي تحقّق وجودا-لذاتها، أي إثباتا لذاتها بما

مصداقيّة محدودٍ، بما أنّه لا يفسّر الجاذبيّة ولا القوى التي تربط بين العناصر الجزئيّة.

(٤) لقد وضّحت طروحاتُ مالتوسْ حول «قانون السكّان» تلك النزعةَ: طبقا لهذا القانون، تنطوي الزيادة في الأجور والتمويلات الخيريّة على خطر تقوية رغبة الفقراء في الانجاب. ومن ثمّ يصطدم كمُّ القوت الذي لا يمكن استزادتُه إلاّ بشكل محدود، مع الارتفاع القويّ لعدد الأفواه التي ينبغي إطعامُها. وعليه، كلّما ازداد «الاجتماعيّ»، ازداد البؤس. وبما أنّ مالتوس كان يرفض لدوافع دينيّة، تنظيم الولادات بواسطة منع الحمل، لم يكن بوسعه أن ينتظر كبح جماح النسل ضمن العائلة البروليتاريّة، إلاّ من جهة أصوات البؤس الحاثّة على ذلك. وكان الأمر يتعلّق عنده، بالتقليص قدر الإمكان من عدد أولئك الذين لم تقدَّم لهم أيّ ملاعق وشوكات على «مائدة الحياة». تبدو عبارة «بروليتاريا» على أنّها خُلفٌ في وضعيّات ديموغرافيّةٍ تكون فيها الطبقة العمّاليّة لأمّة مّا عاجزةً عن تلبية مطالب أخلافها بالتشغيل.

هي جماعةُ الحاملين «للعمل بعامّة». أمّا إيقاظ هذا الوعي وتوجيهُه وتركيزه في شكل «حزب» سيعمل على أخذ السلطة من الدولة، فهذا ما كوّن المهمّة التي اختارتها عدّة أجيال من المثقّفين، - بعضهم تصوّروا أنفسَهم طبقا لنموذج لينين، على أنّهم «ثوريّون محترفون»، - أولئك الذين كانوا يطالبون لأنفسهم، بأسبابِ فهم كافية وضروريّة للسياقات الاجتماعيّة المحدِّدة، فهماً يمهّد لثورة محرِّرة.

حين نودي بالعمل مصدرا لكلّ خلقٍ للقيمة، رُفع «العمّال» إلى مصافّ مبتدعي القيم بإطلاق. فكانت الماركسيّة ترغب مباشرة في تحويل البروليتاريا إلى طبقة بروميثيوسيّة. وفي هذا نُسيت بعامّة الخاصيّةُ الجوهريّة لنظام الأيض الجديد الذي يقوم على الفحم: أعني أنّ البروليتاريا بما هي تجسيدٌ بشريّ لل«عمل وحسب»، لا تستطيع من البداية وحتّى بعد ذلك، أن تشتغل إلاّ بصفتها شريكا فتيًّا لطاقاتِ تقانة النّار التي تنبع من قدامة الأرض. ولا ريب أنّ الأبيات التي نظَمها غيورغْ هِرْفِغْ في «نشيد العمّال»، في ١٨٦٣، «تتوقّف العجلات والدواليب كلُّها/ إذا أراد ساعدُك القويّ ذلك»، تصدق إلى حدّ بعيد، على عصر البروليتاريا الصناعيّة، لكن لا توجد أيُّ قوّة تواجه القوّة المعطِّلة لساعد العامل القويّ، لتدير الدواليب. ولا يمكن أن تصدر تلك القوّة المواجِهةُ إلاّ عن حجرات احتراق المكنات. وأمّا الإضراب بما هو قوّة شَقّ وخرْق، وبخاصّة الاضرابِ العامّ، فغالبا ما ظهر على أنّه فعّال، مع أنّه قد بقي بالضرورة، عقيما، من جهة ما هو عِظمٌ خلاّق.

إذا كان من الممكن أن تتقرّر السلعةُ التي هي قوّة العمل، بما هي كذلك، في الشكل المحض للظاهرة، فإنّ العلّة في هذا هي أنّ سلعةَ الطاقة كانت في الوقت نفسه، قد أُدمجت ضمن منظومة الإنتاج لمكَناتٍ تصنع الخيرات. أنّ ثمنَي السلعتَيْن كلتيهما كانا مقترنيْن، فهذا كان يكمن في طبيعة ترابُطهما الذي كان يجمع بين قوّة العمل البشريّة وبين قوّة النيران.

وبالطبع كان قد عُوين باكرا البعدُ الخارقُ لسلعة الطاقة في شكل الفحم. وكان الفحم في بادئ الأمر، قد نفذ إلى البيوت والمصانع البريطانيّة باعتباره «طاقةً بديلةً» بثمن أرخص بعد أن كان ازدهارُ صناعة السفن والنموّ السريع لمدينة لندن بعد ١٦٠٠، قد تسبّبا في ارتفاع سعر ناقل الطاقة الآخر الذي هو الخشب. بعد ذلك بقرن، كان الفحم قد أضحى العامل الأوّليَّ لصناعةِ معادن نهمةٍ كانت إنجلترا تدين لها بمنزلة المهيمِن على العالَم. في ١٨٦٥، سنتان قبل صدور المجلّد الأوّل لرأس المال، كان الاقتصاديّ البريطانيّ وليمْ ستنلي جفونْسْ، قد عرّف في كتابه مسألة الفحم، النظامَ الطاقيَّ الجديد:

«يهيمن الفحمُ على عصرنا،– عصر الفحم. في الحقيقة ليس الفحم سلعةً من بين سلع أخرى، بل يتفوّق عليها من حيث الأهميّة. إنّه الطاقة الماديّةُ لبلدنا، العونُ الكونيُّ والعاملُ المفتاح لكلّ ما نفعل. مع الفحم، يكاد كلّ شيء يصير ممكنا وسهلا؛ ومن دونه سنعود إلى أزمنة الفقر والعناء الغابرة.»(٥)

---

(٥) ورد في: بيير شاربونيه، **الفائض والحريّة. تاريخٌ إيكولوجيّ للأفكار السياسيّة**، فرانكفورت على الماين ٢٠٢٢، ص. ١٣٨.

ما زال بإمكان جفونس أن يفترض بيّنًا بنفسه أنّ سلعة الطاقة (التي تصدر عن الفحم الحجريّ) ستصير دوما، ضمن التحالف مع أشكال تقدّم ميكانيكا الآلات، أرخصَ من سلعة قوّة العمل، وهذا ما سينقل دائما «تأيّض» الانسان مع الطبيعة، جهةَ المكنة، واقعةً كان ماركس قد وصفها على أنّها «التركيب العضويّ المتنامي لرأس المال». وكان الكاتب في الوقت نفسه، واعيا بتناهي مورد الفحم، بل توقّع الانحدار الضروريّ لإنغلترا عن موقعها المتقدّم في السياسة العالميّة، وهو ما سيحدث في خلال قرن، (مثلما كان ماكس فيبر قد استحضر اللحظةَ التي سيكون فيها «القنطارُ الأخير من الوقود قد انطفأ»[٦] مع نهاية أيّام الرأسماليّة). منذ حوالي ١٨٦٥، كان لدى جفونس تصوّرٌ واضحٌ للتدفّق الرهيب للطاقة عبر الفحم: لو أردنا إنتاج مفعولِه بواسطة خشب يُقتطَع اليوم، لتعيّن قطع وإحراق غابة ستكون مساحتُها ضعف مساحة المملكة المتّحدة. لكن لهذا تحديدا وبمقتضى النفادِ الظاهر لمواقع التخزين، لم تعدْ بعيدةً جدّا اللحظةُ التي لن تستطيع إنغلترا فيها إثباتَ ثقافتها في الوفرة إلاّ بثمنِ تبعيّة متزايدة في مجال التوريدات الخارجيّة الباهظة. لقد سقطت القوّة العالميّة من حيث نجاحها الفائق، في شرَكٍ حيث كانت ترى وشوك انحطاطها المحتوم. ولا أحدَ تقريبا كان يفكّر عصرئذٍ في أنّ الحرائق الكبرى التي كان يشعلها البريطانيّون

(٦) ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة، مونشن ٢٠١٠، ص. ٢٠١.

ستكون لها أيضا آثارٌ أخرى غير نفاد الموارد، - ولا سيّما بقاء جزئيات ثاني أوكسيد الكربون في الجوّ ومن ثمّ تراكمها الذي لم يكن يُرى في بادئ الأمر، ولكنّه تكثّف بعد ذلك ليكوّن ظاهرةً لائحةً تسمّى «التغيّر المناخيّ». أنّ آثارا ثانويّةً كانت تُعتبر في البداية كمّيات يمكن إهمالُها، قد ارتفعت من حيث سلّم المفاعيل، إلى مرتبة الآثار الرئيسة، فهذا ما يوضّح مجال مصداقيّة «المبدإ الرئيس لديناميّة الحضارة» الذي يقول إنّنا نحرّر باستمرار ضمن سيرورة العالَم، مفاعيلَ أكثر ممّا يمكن ترويضه ضمن أشكالِ تحضّرٍ يمكن نقلُها[٨].

لم ينكشف انفجار إنتاجيّة المنظومة الصناعية التي يدفعها الفحمُ، بما هو فقط نتيجةٌ صَرف قوّةٍ بروليتاريّة تحت حكم رؤوس الأموال، بل أيضا بما هو جمعٌ تدريجيٌّ لمفاعيل هندسةِ تقانة النّار. وإذا كان باعثو المشاريع الرأسماليّون يظهرون بصفتهم أرباب عمل يرأسون عمّالَهم، فإنّ المهندسين يظهرون بصفتهم مشغّلي مكناتٍ، أي أجهزةٍ مرصودةٍ للتحيّل على الطبيعة[٩]. ولم يزل اسم جيمس واتْ محفورا في الذاكرة إلى اليوم بما هو شعارٌ لنشاط هندسيّ له مفاعيل ثقافيّة ثوريّة.

---

(٨) بيتر سلوتردايك، ذرّية الحداثة المرعبون. في الحداثة تجريبا جنيالوجيًّا مضادًّا، منشورات الجمل، الشارقة-بغداد، ٢٠٢٥، ص. ٩٨-٩٩.

(٩) إنّ في فائض المخترعين ومتصوّري المشاريع المجانين الذين ظهروا منذ القرن السادس عشر، تأكيدا على حرّيّة فعلٍ أسنِدت إلى مجموعة من الأفراد كانوا يتحرّكون مباشرة خارج دائرة المنفعة، من دون التمتّع بالامتيازات التقليديّة للنبلاء والإكليروس.

فالمخترعون التقنيّون كانوا من حيث ينشئون أجهزةَ عمل ميكانيكّية، قد أظهروا لمموّلي الصناعات المعدنيّة، ما كان بمقدورهم أن يصنعوا مع المصادرة على توفّر سهلٍ لطاقة تُجلب من الخارج، لأجل محيطٍ برجوازيّين لهم قدرة شرائيّة كبيرة، صنائعَ غالبا ما كانت قابلةً للتعديل والإصلاح، ولكن من دون عناء العمل العضليّ. عندما دخلت المكنات البخاريّة البريطانيّة الفعّالة قارّةَ أوروبّا قبيل ١٨٠٠، وكانت في غالب الأحيان تحتفظ بأسرارها التقنيّة، كان المعاصرون ينظرون إليها مندهشين ويسمّونها «مكناتِ النّار»[١٠].

مع تشغيل هذه المكنات، أخذت تستتبّ صياغةٌ جديدةٌ لمجمل تأيّض الانسان والطبيعة: القدرة على الأمر والنهي زائدا إلى قوّة العمل زائدا إلى منظومة قوّة المكنات زائدا إلى نواقل الطاقة الأحفوريّة زائدا إلى الفضلات أو الانبعاثات. وكان قد

---

(١٠) يحسُن بنا في هذا الموضع أن نسوق ملاحظتيْن: أوّلا، أنّ جزءا كبيرا من تراجيديّات التحديث التي نجد لها صدى في الوعي الاجتماعيّ للقرنين التاسع عشر والعشرين، كان ينتُج عن المنافسة المباشرة بين عمل المكنات والنشاط العضليّ،- ولنتذكّر الصراعات المستفحِلة داخل اقتصاد النسيج، حين قمع إغراق الأسواق بمنتوجات النسْج الميكانيكيّ صناعةَ النسج اليدويّ في أصقاع العالَم من الهند إلى سيليزيا. ومن جانب آخرَ، كان ما عمل عليه منظّرون ماركسيّون محاولاتٍ لضمّ مساهمات الانتلجنسيا الهندسيّة الحديثة في مسارات إنتاج المجتمع الصناعيّ، إلى الدائرة البروليتاريّة تحت عنوان «العمل الفكريّ»، محكوما عليهْ بالفشل استنادا إلى علل مبدئيّة. ذلك أنّ نشاطَ الابتكار لا يمكن طبقا لخصّيصته ومثله مثل النشاط الفنيّ، أن يُدرج ضمن مجال «العمل بعامّة».

تعيّن في هذه الصياغة الجديدة، إضافةُ ديناميّاتٍ في احتقار الطبيعة لا نظير لها،- من جانب الاستعمال الاستئصاليّ للـ«موادّ الأوّليّة»، كما من جانب الإنتاج الطائش للمفاعيل الجانبيّة. ووجب في ما يتعلّق بالعنصر الثاني للصياغة الجديدة، أن يؤخذ في الحسبان أنّ عبارة «قوّة العمل» تضمّ عِظمَيْن مختلفَيْن ظهرا على مرّ أكثر من ثلاثمئة وخمسين عاما،- من جانب عِظمُ الطبقة الشغّيلة بالدلالة المحدثة للعبارة التي كانت تخصّ العمّال المأجورين والفنّيين المختصّين ذوي المهارة العالية، ومن جانب آخرَ، كأنّها ظاهرة قديمة متجدّدة، قوّة العبيد في الزراعات الكبرى الذين كانوا في الواقع وكما هو الحال في حقبة الدول الأولى، يُطاردون ويؤسَرون ويباعون ويُكرهون على إنجاز أعمال وخدمات تزيد أو تقلّ إجهادا[١١]. وحين تطبّق عليهم عبارةُ «سلعة قوّة العمل»، تستفيد هذه العبارة دلالةً حرفيّةً لقباحة غير متوقّعة: فهي تدلّ مباشرةً على «الانسان السلعة». ومن ثمّ ينكشف الانسان المستغَلُّ كليًّا، بصفته عبدا حديثا، شكلَ ظاهرةٍ للـ«طاقة بعامّة»، بل يصير في التصوّر الحديث، البريطانيّ والإنغليزيّ المحدَث، كما البلجيكيّ وفي استعمالات كولونياليّة أخرى، «المكنةَ المحرِّكةَ وحسب» (الضعيفة نسبيًا من حيث يُصيبها الإعياءُ وتبقى تابعةً للغذاء، ولكنّها تقاوم نسبيًا الحرارة المرتفعة ومن ثمّ يمكن استخدامُها في الأقاصي).

---

(١١) إغون فلايْغ، التاريخ العالميّ للعبوديّة، مونشن ٢٠١٨، ص. ١٥٢-١٩٨؛ وانظر أيضا: ميكائيل تسُيْسكِهْ، العبوديّة. تاريخٌ للبشريّة من العصر الحجريّ إلى يوم الناس هذا، شتوتغارت ٢٠١٨.

إذا كان الشكل الحديث للمجتمع قد صار في مجمله ممكنا بواسطة المفاعيل المحرِّرة لفوائض تقانةِ نار لا تُقاس، فإنّ التحرير المكثَّف للذكاء الذي يستكشف ويبحث ويبتكر، قد فتح فضلا عن ذلك، مصدر قوّةٍ ثانيا للفعاليّة الحضاريّة القصوى،- يمكن لكي نستعمل صورة مجازيّة حرّةً، أن نطلق عليه اسم النيران الباردة للفعاليّة. لقد توسّعت هذه القوّة في المقام الأوّل، داخل المناخ المواتي للإبتكار في جمهوريّة الآداب التي نزّلت منذ القرن السابع عشر، عالَم العلماء الأوربيّين ضمن سياق تحاور مثير وحاثّ. أمّا مفهوم التكنولوجيا فيوصّف به المرء اسْتعاديًّا، جملةَ الإواليّات- بدلالة المفردة اليونانيّة «ميخانيه»، أي الحيلة والمكر والطريقة الحصيفة، التي تمكّن من استغلال المسارات الطبيعيّة في التخفيف من بذل الجَهد البشريّ. ولم يكن برودون على حقّ بالتمام حين أكّد أنّ «المكنة هي رمز لحريّة الانسان.»[١٢] إذ أنّها لم تكن رمزا لها، بل كانت عنصرها الفاعل. فالطاقة التي يُنتجها الفحمُ كانت تكوّن فاعلَ الفاعل، من حيث صار العاملُ أكثر فأكثر علّةً ثانويّة في الإثراء العامّ الذي يدفعه الذكاء والطاقة.

وبالتالي، يضمّ تعريفُ الحداثة معاينةَ أنّه إلى جانب التحصيل المكثّف لل«قوّة بعامّة» من خلال مصادر جديدة للنّار، يؤدّي الاستغلال الذكيُّ للأجسام التي تحرّكها القوّة، دورا ما ينفكّ يزداد أهميّة. وما يسمّى بالتعميم، «تقنية» حديثةً إنّما يشير

---

(١٢) ورد عند شاربونييه، **الفائض والحريّة**، مصدر مذكور، ص. ١٧١.

إلى مجموع عمليّات تستهدف انتزاعَ مفاعيل جديدة من «الموادّ الطبيعيّة». ومن ثمّ يدخل الكثيف مع اللطيف في علاقات لم تعُد مفردةُ «عمل» تدلّ عليها إلاّ من باب التقريب. وجزء كبير من أشكال الاستغلال هذه يصبّ في فنّ «الكيمياء» الذي ظهر منذ القرن الثالث عشر، وازدهر صناعيًّا في القرن التاسع عشر، ويقوم على معالجة تحوّلات الموادّ بواسطة ملامسة «الكواشف»؛ وفي هذا يغدو جليًّا أنّ «الطبيعة» نفسها تقدّم مجال لعب لظاهرات ميكروطاقيّةٍ ذاتِ تنوّع لا حدّ له، ويعسُر سوءُ فهمها باعتبارها «عملا». لقد أظهر السماد المعدنيُّ الذي صنعه يوستوس ليبيشْ وحُثّ على استخدامه منذ ١٨٤٠ وبدأ معه عصر الكيمياء الزراعيّة، كيف كانت تدخّلاتٌ محدَّدة في أيض النباتات، تفضي أيضا إلى تثوير الزراعة،- مع تبعات دراميّة على الصعيد الديموغرافيّ. وأمّا إجراء هابر-بوشْ الذي يُنتج توليفة الأمونياك في نطاق واسع وعلى طريقة التكنولوجيا العالية، وطوِّر بين ١٩٠٤ و١٩٠٨، فقد مهّد لتقدّم كبير في تصنيع الزراعة. وكذلك الأمر في مجالات الميكانيكا مع مطلع الأزمنة الحديثة، حيث طُوّرت بتجويدٍ متزايد، تحويلاتُ شكل القوى واتّجاهها. لكن حين اخترع جيروم كاردانْ (١٥٠١-١٥٧٦) إواليّةَ نقلٍ تحوّلُ حركةَ عمودٍ في دوران على عجلات جانبيّة، مع مفاعيل إسراع وإبطاء للدوران، فإنّه لم يصر من ثمّ فاعلَ «عملٍ فكريّ»، بقدر ما أنّ روجيه فِديريرْ لم يصر عضوا من أعضاء بروليتاريا مثقَّفة عندما كان على ملعب كرة المضرب، يضع خصمَه بضرباتٍ مقلوبةٍ مسدَّدة، أمام مهمّات تكاد تكون مستحيلة.

مع الدخول في الحقبة الصناعيّة، كانت الذكرى الثقافيّة لبروميثيوس، جبّارِ الميثولوجيا اليونانيّة الحمّالِ للنّار، قد أعيد تفعيلُها بطريقة كانت قد خلعت على مفهوم «النهضة» المقنَّن مسيحيًّا، دلالةً مبدَّلةً من منظور حداثيّ[١٣]. وليس يَعدم علّةً أنّه كان بالإمكان وصف الحداثة في مجملها، باعتبارها عصر إبطال الآلهة الموسومَ بعودة الجبابرة، أعني كمّياتِ طاقة ضخمة لها قوّة دونَ قوّة الآلهة كانت معهودة في الميثولوجيا اليونانيّة. من غوته الشابّ إلى تروتسكي (الذي ينبغي إلى حين إخبار آخر، الإمساكُ عن الحكم على عدم احترافيّته في مسائل تهذيب النّسل التي يستلهم بعضها من نيتشه[١٤])، كان بروميثيوس يُستحضَر دوما بوصفه حاميَ مشاريع الخلق الذاتيّ للإنسان التي يكون لها منزعٌ برْمَجيّ. وحسب الميثة، كان الجبّار قد عوقب على صنيعه المناصر للإنسان، بما أحاقه به زويْسْ، سيّد الآلهة، فشُدَّ إلى صخرة القوقاز حيث كان عُقابٌ يعذّبه أشدّ العذاب يوما من بعد يوم. غير إنّ الجبّار كان يتكهّن بيوم تحريره، أي يومَ ستكون هيمنة زويْس قد ولّت وانقضت.

ويمكن من منظور حديث، أن نربط بين نهاية عصر زويْسْ

---

(١٣) أنظر: كونراد بورداخ، **الإصلاح والنهضة والإنسانويّة. مقالتان في أسس الثقافة وأفانين اللغة الحديثة**. برلين ١٩١٨.

(١٤) في نصّه **الأدب والثورة** الذي صدرت النسخة الأصليّة منه في ١٩٢٣، كان يلقّن فكرةَ أنّ تآزر البيداغوجيا الاشتراكيّة وتهذيب نسل اليسار يمكن أن ينتج رهطا من البشر ستكوّن بالنظر إليه مواهبُ من مثل التي لأرسطوطاليس أو ماركس أو غوته، المعدَّل، والحال أنّ قمما جديدة سترتفع فوقه.

وبين الدخول في العصر العالميّ للندرة. حين ينزل الجبّار بروميثيوس من الصخرة التي صُلب عليها، ليس له إلاّ أن يعاين بدهشةٍ شديدة، تغيّر حال العالَم. فيجد نفسه أمام بشريّة تكاد لا تشبه في شيء تلك التي كان قد رغب في إنجادها بأنْ وهبها النّار. ذلك أنّ الأرض القديمة الضنينة أمست تغطّيها ما لا يُعدّ ولا يحصى من النيران التي تشتعل في ملايين المواقد. فتُقذف من فوهات المدافع، نيران جديدةٌ غريبةٌ وضارّة[١٥]. وتدوّي في الجبال انفجاراتٌ من طراز نجهله كليًّا. في ١٨٨٨، أعلن فيلسوفٌ كان ما يزال مغمورا: «لستُ بشرا، أنا ديناميتْ.[١٦]» وكان يذكّر بأنّه إلى جانب النّار التي من المرتبة الأولى، ظهرت في العالَم، نار جديدة، هي نار الموادّ المتفجّرة. بهذه النّار لا تُنقَل الجبال بل تُنقَب. وكانت عبارة «أنا ديناميت» تدلّ في أفق القرن التاسع عشر المتأخّر، على النزعة الهلفيتيّة بإطلاق. فالذي يخطّط لحفر نفقٍ في كتلة جبليّة من مثل سان-غوتهاردْ في سويسرا، كان يفتح لسكّان الشمال منفَذا أسهل إلى دوائر البحر الأبيض المتوسّط. وكان نيتشه، المفكّر الديناميتيّ، يشير إلى

(١٥) ألفريد ي. كروسبي، قذْف النّار. تكنولوجيا إطلاق النيران عبر التاريخ، كامبريدج/نيويورك ٢٠٠٢.

(١٦) فردريش نيتشه، هو ذا الانسان، الطبعة النقديّة (KSA)، المجلّد ٦، ص. ٣٦٥. وليس مستبعَدا أنّ عبارة نيتشه كانت قد استُلهمت من الناقد الأدبيّ السويسريّ يوزيف فكتور فيدمانْ الذي كان وصف في نقده لكتاب في ما أبعد من كلّ خير وشرّ (١٨٨٦)، الصادر في مجلّة عُصبة، بأنّه «ديناميت».

بشر المستقبل، بالطريق إلى جنوبٍ كلّيّ: يُفترض أنّه من الممكن في هذا الجنوب، إدراكُ الوحدة بين السكينة والارتقاء إلى المرتبة الموالية من الوجود البشريّ. ومن ثمّ كانت تقانة النّار تتماهى مع تقانة البشر. وكان يُفترض أنّ الاحتراق والانفجار يفيدان مشروعَ وجود بشريّ موسَّع.

إنّه الفيلسوف النمساويّ-الألمانيّ غونترْ أَنْدِرْسْ (١٩٠٢-١٩٩٢) هو الذي كان قد أشار بإعمالِ الفكر في ما إذا لم يكن بالنسبة إلى الجبّار القديم بروميثيوس، قد بدأ طورٌ ثانٍ بعد أن وهبَ البشرَ النّار: فجأةً يتعيّن على بروميثيوس الإقرارُ بأنّه ثمّة ما يدفع إلى الخجل. فمع الحداثة المتقدّمة يبدأ ما يسمّيه أندرسْ بـ«عصر الاستيحاء البروميثيوسيّ». ذلك أنّ الجبّار المناصر للإنسان لم يكن يريد أن يفعل البشرُ بهبة النّار ما فعلوا. ولم يكن يتوقّع أنّ النّار التي جلبها من موكب الشمس إلى الأرض في عمود مجوّف لشُمرة ضخمة، كانت ستتحوّل إلى حريق هائل يدمّر العالم في ما لا يعدّ ولا يُحصى من البؤَر. ولا جبّار، ولا إلهَ من آلهة الأولمب، كان سيتوقّع أنّ الانسان سيتوصّل إذ يتخلّص من الحاجة إلى المساعدة، إلى تثوير العالَم بواسطة إضرام نيران في أدغال تعود إلى أعماق الأزمنة الغابرة. حتّى بروميثيوس الذي كان معتزًا بمقاومة ما أملاه الإله-الأب اعتدالا، لم يكن بوسعه أن يعرف مع أنّ اسمه يعني «العالِمَ بالغيب»، إلى أيّ حدّ ستتمادى أشكالُ شطَط الهوَس بالإحراق (وما يتبعها أشكالَ اشتطاط معدنيّة وكيميائيّة) عند النوع البشريّ الذي فضّله عن غيره من الأنواع.

غونتر أندرس هو المفكّر الذي صاغ إحدى القضايا الأساسيّة في نقد الحداثة المتأخّرة: بروميثيوس يخجل من نفسه. وهو على حقّ. ذلك أنّ هبة النّار قد انكشفت هديّةً مشؤومة صار من البيّن أنّها دخلت طورَ ما لا يمكن التكهّن بوباله. ولم يعُد الواهب يستطيع الشعورَ بأنّه قد فُهم عنه، بل يرى على العكس من ذلك، أنّ وجهَه قد سُوِّد بما فعل الموهوبون بهبته. فيتعيّن على الجبّار أيضا أن يتعلّم أنّ الوهبَ يُتعلّم. إذ أنّ الوهب عن سذاجةٍ يفضي إلى الندامة حالما تتضخّم الهبةُ بين يديْ الموهوب وتتحوّل إلى ما لا يُقاس. ومن ثمّ يجري جحود الموهوب مجرى سطوةٍ عالميّة من نوع بعينه. فما كان يُراد به وسيلةً ضدّ القُصور يربو قوّةَ شرّ لا تناسُبَ فيها البتّة مع المساوئ التي كان قد تعيّن في البدء دفعُها. فالبشر الذين مُنحوا تقانةَ النّار، يُلقون بكمّيات لا محدودة من الموّاد المحترقة في نار كانت تعتبر في البدء كتلةً «هيولانيّة». وتتسرّب من مواقدهم المفتوحة، ومحرّكاتهم، وأفرانهم العالية، وتنقيبهم في باطن الأرض، ومحطّاتهم للتوليد الكهربائيّ، ومدافئهم، وميادين تقاتلهم، وحوادثهم الناريّة، سحبُ دخان لا تنذر إلاّ بالويْلات. فالسحب ما تنفكّ تتكثّف حدَّ أنّها تضع موضع سؤال وجودَ العالَم برمّته، كما عرفه البشرُ والآلهةُ إلى الآن.

٤

العالَمُ الحديث
تحويلُ الاشتغلال

لكي نستحضر المسارَ الذي نصف في هذا الموضع، من حيث انعكاساته النظريّةُ الأولى وفي ملامحه العامّة، يحسُن بنا أن نعود إلى نصوص المؤلّفين الّذين يُشار إليهم بشيء من الاستخفاف، وفي رطانة المدرسة الماركسيّة، بـ«الاشتراكيّين الأُوَل» أو «الاشتراكيّين الطوباويّين». وإنّها تحديدا مدرسة السان-سيمونيّين، نسبةً إلى مؤسّسها هنري سان-سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥)، هي التي كانت قد أعلنت أنّ النظام الاجتماعيّ في المستقبل ستهيمن عليه «طبقة الصناعيّين». ويُفترض أنّ مفردة «صناعيّ» تدلّ عند سان-سيمون، على ارتباطٍ تعاضديٍّ لـ«طبقات الكادّة» قائم موضوعيًّا ضمن حلف قوميّ (في اللاتينيّة، 'إِنْدُسْترْيا' تدلّ على ما هو من قبيل الاجتهاد والبذْل والجَهد والكدّ). وطبقا للتصوّر السان-سيمونيّ، سيكون العمّال ضمن «طبقة الصناعيّين»، بالدلالة الموسّعة التي تشمل أصحاب المشاريع والتجّار والحرفيّين والمخترعين والعلماء،

ومعهم مبتكرو القيم والسلع في مجملها، مدعوّين إلى التمسّك بحبل التقدّم باسم الخير للجميع، على نحو مشترك وتكافليّ، وبخاصّة لكي يتمكنّ الفقراء الذين ما زال عددهم مرتفعا، من الانتفاع بتلك الخيرات الجديدة. ولم يكن سان-سيمون يُخفي الطابَع الدينيّ لأفكاره،- لقد أشهر التنظيم الطائفيّ لأشياعه بالدعوى الدينيّة لإعلانه. وبعد ذلك بوقت قصير، كان أوغست كونت قد استلهم هذا المزجَ بين سوسيولوجيا مبكّرة وعقيدةِ الإنتاج، في إعلانه عن «دين للبشريّة» في حلٍّ من الله.

في مقابل «الصناعيّين» توجد مجموعاتُ «العاطلين» والمتطفّلين الذين يدّعون المحافظة على بقائهم من دون كسب وسائل قوتهم بالعمل أو بالفعل الخلاّق للقيمة. لقد اندهش سان-سيمون في سياق مباحثه، من واقعةِ أنّه فضلا عن مجموعات الإكليروس والنبلاء التي تكاد تعرى من أيّ وزن عدديًا، إذ كانت تضمّ ما لا يفوق ثلاثمئة وخمسين ألفَ فرد، أي نسبة واحد فاصل خمسة بالمئة من السكّان، ثمّة في عصره، جزء كبير من المجتمع الفرنسيّ، أي حوالي أربعة وعشرين مليونا، كان يتكوّن من أعضاء «غير مُنتِجين»، أي الذين كان يسمّيهم بالعاطلين، وغير المستخدَمين، بل حتّى الكسالى. ونتجتْ عن استنكار الحياة غير المرصودة للعمل، استنكارا لا يستدعي التبرير، دعوةُ سان-سيمون إلى تعاضد العناصر المنتِجة من أصغر عامل مأجور إلى بارون الصناعة الذي يعُدّ قطع ذهبه، مرورا بالتجّار والعلماء كلّهم. فكانوا يمثّلون في نظره، أولئك الذين يستحقّون حملَ اسم «مجتمع صناعيّ». ويُفترض أنّه ينجمُ

من وسطه، المهندس صاحب المشاريع الذي يتنزّل ضمن هذا المجتمع، في منزلة عبقريّه وقائد سمفونيّته ومديره الروحيّ.

أمّا إشارة سان-سيمون إلى الّذين لا يُنتجون ومن يُزعم أنّهم كسالى متقاعسون، فإنّما تكشف عن مكر سوسيولوجيّ. ذلك أنّه حتّى إذا كان ثمّة نزوع إلى حمل عبارة «عاطلون» على الطبقتيْن الأولى والثانية في النظام القديم، اللتيْن كانتا كلتاهما في أيّام سان-سيمون تحتفلان بعودتهما (الأولى في شكل ميثاق ختمه مع الكنيسة الكاثوليكيّة في ١٨٠١، وباسم الأمّة الفرنسيّة، نابليون بصفته القنصلَ الأوّل، والثانية تبعا للإصلاحات التي نهض إليها آل بوربونْ بين ١٨١٤ و١٨٣٠)، فإنّ الإشارة إلى وجود مجموعة غير صناعيّة أو «كسول» ينطوي مع ذلك على فكرة مزيّفة هي أنّ الأمر كان يتعلّق ههنا بما لا يقلّ عن النصف العدديّ لمجموع السكّان. ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، كانت تركيبة هذه المجموعة قد تنوّعت كثيرا حدًّ أنّه ما عاد بوسْع أكبر الروائيّين أن يوضّح كليًّا مشاهد «الكوميديا البشريّة» التي كانت في غالب الأحيان مجموعَ تراجيديّات.

كان المسرح العالميّ لما هو «اجتماعيّ» الذي كان يبدو في الظاهر على أنّه «عاطل»، يتكوّن في المقام الأوّل، من الزوجات اللاتي تُرِكنَ إلى أعمال البيت، وكنّ ينتمين إلى جميع الفئات غير النبيلة (في حين أخذت تتعالى عند الطبقة العليا، الأصوات الأولى لتحرير النساء، التي كانت قد اختلطت بأصوات صاحبات النزعة النسويّة الأوَل)، ثمّ من الأطفال الذين كانوا تقليديًّا، كثيرين (وغالبا ما كانوا يموتون في سنّ مبكّرة)، ومن

الشباب الذين من مختلف الفئات (وهو ما يفسّر لماذا كان للبنية الديموغرافيّة مع مطلع القرن التاسع عشر، الشكل الهرميُّ الكلاسيكيّ)، وأيضا من عدد لا يُستهان به من المسنّين (مع أنّ ما سمّي لاحقا، بـ«معدّل الحياة» لم يتجاوز قطّ من حيث تقديره الإحصائيّ الأوّل في أوروبّا الغربيّة، الثلاثينَ سنة). وكان يتكوّن أيضا من أرامل وعوانس وعقَقَة[1] وصائدي مواريث وأصحاب معاش مريح ومضاربين مفلسين وجنود (سواء كانوا تحت الراية أو مستبعَدين من الخدمة العسكريّة أو فارّين)، ومن عاطلين عن العمل ونافرين منه، ومصابين بأمراض مزمنة في البيوت والمستشفيات، ومن متسوّلين ومتسكّعين ونشّالين وشطّار، ونزلاء سجون ومَآوٍ ومياتم، ومن طلاّب وفنّانين مغمورين ولاجئين غير شرعيّين وأدباء فاشلين ومشعوذين ومغنّي شوارع وعازفي كمان في الحانات، ومن خليلات ومومسات وبنات هوى، ومن ممثّلين بفِرقة وبلا فرقة، ومشاغبين وبوّابين وشاحذين وحلاّقين وبائعي يانصيب وعارضين وسكّيرين ومتشرّدين وتاركي الرهبانيّة، ومن جميع الآخرين «السافلين»[2] الذين كان يقبعون في قاع الحوض الاجتماعيّ. وهذه زمرةٌ من مجموع كبير كان يُشار إليه حين كان إنغلس يصف في توافق مع ماركس، «ما دون البروليتاريا» باعتبارها «حثالة السفلة من

(١) نجد لمحة عن جحيم العلاقات الفاشلة بين الآباء والأبناء في دراسة بيتر فونْ ماتْ، أبناء ضالّون وبنات تائهات. مآسي أسريّةٌ في الأدب، مونشن ١٩٩٥.

(٢) ميشيل فوكو، حياةُ السفَلة، برلين ٢٠٠١ [١٩٧٧].

الطبقات كلّها»[٣]، - على أساس التقويم الصائب الذي مفاده أنّ مثل هؤلاء الأشخاص يمكن أن يُستفاد منهم إن سنح ذلك، في إحداث الشغب، ولكن لا يُرجى منهم شيء عند نشوب الثورات. كان على كاتبيْ بيانٌ شيوعيٌّ أنْ يتدبّرا الارباك الناتج عن كون هذه العناصر قد ظهرت بكيفيّة غير مرغوبٍ فيها، في الصفوف الأماميّة إبّان الاضطرابات والقلاقل الاجتماعيّة، كما هو الحال بين ١٧٨٩ و١٧٩٢ (مع مذابح سبتمبر)، ثمّ من جديد في ١٨٣٠، وفي كلّ مرّة يغدو فيها تقلْقُلُ الشارع ملموسا.

غير إنّ المفهوم الهيغليّ في «رعاع»[٤] لا يعيشون من عملهم ولكنّهم يطالبون عن نيّةٍ قبيحة، بحقّ المحافظة على البقاء بواسطة آخرين، عجِز عن معالجة مشكل النصف غير المنتِج من حيث وزنه العدديُّ ومن حيث دلالاته النظاميّة. لكن سواء كان هيغل هو الذي يتكلّم عن «الرعاع»، أو كان ماركس وإنغلس هما اللذان يستبعدان من حيث يستعملان لغةَ الصراع الطبقيّ المصادَر عليه، «ما دون البروليتاريا» باعتبارها «حثالةً» بلا قيمة للبروليتاريا الحقيقيّة[٥]، فإنّهم قد جانبوا ثلاثتُهم وإنْ لعلل

---

(٣) فردريش إنغلس، ملاحظة تمهيديّةٌ لـ«حرب المزارعين الألمان» (١٨٧٤)، **أعمال ماركس وإنغلس**، مجلّد ٧، برلين ١٩٦٠، ص. ٥٣١-٥٤٢؛ ص. ٥٣٦.

(٤) غيورغ فلهلم فردريش هيغل، **أصول فلسفة الحقّ**، **الأعمال**، مجلّد ٧، برلين ٢٠١٧، [١٨٢١]، ص. ٣٩٠.

(٥) وفي المقابل، كان فرانتس فانون في بيانه الما بعد كولونياليّ، **الملعونون في الأرض**، يريد تجنيد ما دون البروليتاريا من الجزائريّين العاطلين عن العمل وسكّان ضواحي أكواخ الصفيح، للكفاح ضدّ الأسياد

مختلفة، الفرقَ المخفيّ في الحياة اليوميّة، بين غير المنتجين والمنتِجين في عموم سكّان الدول-الأمم الحديثة؛ وحتّى محاولةُ الفصل داخل المجموعة، بين أولئك باعتبارهم «فولغوسْ»، دهماء، زمرةً غير متشكّلة، وبين هؤلاء باعتبارهم «بُبُولوس»، شعبا ذا تقويم، تبقى قاصرة عن التمييز الفعليّ الذي لم يفكّر فيه بطريقة مناسبة لا الهيغِليّون ولا الماركسيّون. فسواء تعلّق الكلامُ بـ«الشعب» أو بـ«الدهماء» أو بـ«الرعاع» أو بـ«الطبقة الثالثة» أو بـ«الطبقة الرابعة» أو بـ«طبقة العمّال» أو بالطبقة بما هي زمرةُ «الناس البسطاء»، - فإنّها لم تكوّن في أيّ وقت كان، الكتل الاجتماعيّة نفسَها التي أُريدَ أن يُنتحَل لها الاسم نصف الأسطوريّ «شعب»، استدعاءً للمصدر الجديد للسيادة، أعني السيادة الما بعد ملَكيّة.

وفضلا عن ذلك، لا يتعدّى ماركس بخطابه المعمَّى والتأسيسيّ عن البروليتاريا، الوهمَ الناظمَ لمجتمع شِغّيلٍ يحمل ملامح «نشاط عمليّ» لبرجوازيّة صغيرة معمَّم. وفي الحقيقة، ما من مجتمع حديث يمكن أن يستتبّ من دون مساهمات مشاركين غير مرئيّين يطفون فوق الماء على منوال الارتجال الدائم.

الاستعماريّين. ويفهم المرء عند قراءة أطروحته التي تدافع عن العنف الثوريّ الخامّ على حساب فكرة جديدة في الثقافة ما بعد كولونياليّة وإنسانويّة، وعلى الرغم من تلقّيها الواسع، لماذا ساهمت تأمّلات فانون في إخفاق إبطال الاستعمار الداخليّ كما الخارجيّ، فهو يقول: «بالنسبة إلى المستعمَر، لا يمكن أن تولد الحياة إلاّ من جثّة المستعمِر المتحلّلة».

وبالفعل، ما يتخفّى تحت العبارات المرتبكة مفهوميًا من مثل «حياة البطالة والكسل»، أو «وجود غيرُ منتِج» أو «ما دون البروليتاريا»، هو بؤرُ نشاطات غير رسميّة وغير معتبَرة وغير مأجورة، تسكن الجسم الاجتماعيّ كأنّها بكتيريّات قبْحيويّة. لكنّ هذه المفهومات غير المناسبة تحيل على منزع طفيْليّ منظّم يتعلّق بكلّ مجتمع مركّب،- عند القطب الأسفل، في شكل فئاتٍ لها وزن عدديٌّ توجد في تماسفٍ مشدَّد يبعدها عن كلّ حياة كسْبيّة، وعند القطب الأعلى، بواسطة نشاط الذين يتمتّعون بمداخيل عالية من دون أداء عمل بعينه.

وينتمي أيضا إلى الزمرة المختمِرة لغير المنتِجين، إذا أردنا التمسّك مؤقّتا بهذه العبارة المستشكِلة، أولئك الذين كان فولتير قد سمّاهم بـ«أوباش «العاصمةِ» الكتّاب، والأوباش المتآمرين، والأوباش المتشنّجين»[٦]. من دبيب القلَم المثير للقلاقل، نرى بعض الكتّاب الناطقين بالألمانيّة، ولا سيّما من بين تلامذة هيغل المرتدّين، يبرزون أكثر من غيرهم، بشكل لافتٍ، مدوٍّ وبخطابةٍ أنفذ، حتّى أنّه سيكون بإمكان المرء أن يعتقد أنّهم كانوا يشعرون بأنّ النار الهامدة لتجريد تاريخ العالَم قد دعتهم إلى تقلّد منصب محاميّي الشعب، أو بالأحرى، قادة مستقبل تاريخ البشريّة. فتتحدّد بكيفيّة أوضح تحت ريشتهم، معالمُ سيناريو الحرب الأهليّة للمستقبل: يُفترض تبعا لهذا السيناريو، أنّ طبقةً بروميثيوسيّة ستتيّقّظ للوعي الذاتيّ ولسطوته، وستدفع

(٦) فولتير، كونديد أو التفاؤل، جنيف ١٧٥٩، الفصل ٢١.

العمّال المأجورين المُطرِقين، إلى نزع ملكيّة الّذين استولوا على الملكيّة، أي «الصناعيّين» بالدلالة الضيّقة التي كان يحملها وقتئذ هذا اللفظ. وكان يُفترض أيضا أنّ العمّال سيطردون أولئك الذين كانوا «يستغلّونهم» إلى ذلك الوقت، سرّاق القيمة المضافة المقنَّعين، ومصّاصي دماء زمن الحياة غير المأجور، - ولمَ لا أيضا، أن يزجّوا بهم في جحيم معتقلات الكوليما أو معتقلات اللاَوْغِيْ الصينيّة حيث «الإصلاح بواسطة العمل» المنهِك. لكن، ليس الرأسماليّون وكبارُ مالكي العقّارات سابقا هم الذين كان ينتهي بهم الأمر إلى تلك المعتقلات، بل هم في الغالب، أناسٌ بسطاء كانوا قد عاينوا بعضَ نشاز في سيناريوهات الحرب التي أنتجتها النظريّةُ، لكي لا نتحدّث عن أولئك الّذين أساؤوا تقدير سلطة الوشاية عند الرفيق الذي من بني جلدتهم.

وبإيجاز شديد: ينبغي في مجتمع المستقبل كما خطّط له الإشتراكيّون الأوائل، أن يتركّز انتباه الحكومات والرأي العامّ المناضل على ترقية العناصر المنتِجة والمتينة والمثابرة على العمل من السكّان. لقد كان سان-سيمون حصيفا إلى حدّ مّا عندما تنبّأ بأنّ العلاقات النقائضيّة بين ريادة الأعمال والعلوم التقنيّة وبين فئة العمّال المنتِجين، ستصير ضمن مجمل التطوّر الاجتماعيّ على المدى الطويل، أكثر وزنًا من تشديد الإيديولوجيّات الراديكاليّة في الحرب المحتومة، على صراع «الطبقات» تشديدا استطراديًّا ومفخَّما. وفضلا عن ذلك، كان التزايد المحتومُ للخدمات ضمن المنظومة الحيّة للمجتمعات الصناعيّة المتطوّرة، قد أبطلَ أكثر فأكثر، بطوليّةَ البروليتاريا

الصناعيّة. وفي الوقت نفسه، كان الانخفاض السريع لنسبة الولادات قد أنتج أحوالا سرعان ما طغت فيها صراعات الجنسيْن الملتبسة على صراعات الطبقات التي كانت توشك أن تتشكّل.

كان مجرى تاريخ الأفكار منذ منتصف القرن التاسع عشر، قد سلك طريقا أخرى. ذلك أنّ نصّ بيان شيوعيّ الذي صدر في فبراير ١٨٤٨ وانصرف عن حدوسات الاشتراكيّة المبكّرة بذريعةِ «طابَع علميّ» اكتُسب في الأثناء، كان قد ضخّم التعارضَ المحرّك للشطر «الصناعيّ» من المجتمع وحوّله إلى تعارضٍ عداوةٍ قاتلة بين «العمل» و«رأس المال»،- إلى ما يُزعم أنّه «تناقض رئيس» كان شقّ من حيث النموُّ الداخليُّ، مجتمعات «الطبقات» التي من الطراز الصناعيّ ودفعها بمقتضى تبسيط تاريخيّ للجبهة، إلى خوض معركة أخيرة. وأمّا انفجارات العنف التي نتجت عن الانتفاضة الباريسيّة في جوان ١٨٤٨ عندما اصطدم تمرّد العمّال بعد إغلاق المصانع القوميّة (وهذا شكل مبكّر للمطالبة بخلق مواطن شغل عموميّة) بإجراءات حكوميّة قاتلة، فقد كانت تبدو للوهلة الأولى على أنّها تحمل تصديقا لما ذهب إليه ماركس وإنغلس.

لقد انكشفت إعادة التأويل الدغمائيّة للشركة المتضادّة بين العمل ورأس المال باعتبارها حربا طبقيّةً محتومة داخل الدائرة «الصناعيّة»، على أنّها سيناريو مسرحيّ مصيريٌّ رُصد للحركات السياسيّة الراديكاليّة في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر، بل أيضا في الشطر الأوّل من القرن العشرين. ومن ثمّ صُدّر مذهب

حرب الطبقات بما هو خطأ مركزيّ للفلسفة السياسيّة التي من الطراز الألمانيّ، إلى العالَم بأسره، وفي غالب الأحيان، مع عواقب مرعبة. كان هذا المذهب قد انتشر عن طريق قنوات تخريبيّة، في روسيا والصين حيث اعتنقته ديكتاتوريّاتٌ غاشمةٌ كانت تستهدف التطوير الصناعيّ وكانت قد تهيّأت لهذا بحروب أهليّة أودت بحياة ضحايا كثيرين (في روسيا بين البيض والحُمر، وفي الصين بين الكو-مين-تانغ والشيوعيّين)، ومن ثمّ حوّلت طبقةً بروليتاريا صناعيّة أخذت تتشكّل وقتئذ، وما لا يعدّ ولا يُحصى من السُخرة المزارعين في المناطق الريفيّة، إلى ضربٍ من طبقةِ عبيدٍ لها معالم فرعونيّةٌ محدَثة. وكذلك الأمر في كوبا وشمال كوريا وكامبوديا حيث كانت مؤسّساتُ استيراد مشتبَه فيها قد عملت على جلب المصدَّر الألمانيّ؛ وأمّا تجارة الوساطة الفرنسيّة فقد أضافت إليه ما حوّله إلى وبال.

في سبتمبر من العام الذي وضع فيه ماركس وإنغلس بيانَهما، نشر عالم الاقتصاد والبرلمانيّ الفرنسيّ فردريكْ باستيا (١٨٠١-١٨٥٠) الذي استلهم نظريّات بريطانيّة (وكان برودون المشاغب قد هاجمه في شخصه)، رسالةً بعنوان «الدولة»، في جريدة النقاشات، أظهر فيها الإجهاد المزمِن للدولة الجمهوريّة بوابل من الدعوات إلى تدخّلها ترِد من كلّ حدب وصوب:

«استأصلي الأنانيّة. [...]
اسْقي السهول.
ازرعي الأشجار في الجبال. [...]
استعمري الجزائر.

أرضعي الأطفال. [...]
امنحي المال من دون فوائد، للّذين يرغبون في ذلك.
ربّي جوادَ الركوب وهذّبيه.»

هو ذا ما تصيح به على الدولة مئات آلاف الأفواه. وما تجيب عليه منهَكةً على لسان باستيا:

«يا أيّها السّادة، صبرا جميلا!
سأحاول تلبية مطالبكم ولكنّي أحتاج في هذا إلى بعض الموارد. لقد أعددت مشاريع تتعلّق بخمس أو ستّ ضرائب جديدة ورؤوف. ترون بأمّ أعيُنكم كيف سيكون دفعُها ممتعا.»

ومن ثمّ، ترتفع من جديد، جلبةٌ وصياح:

«بدلا من الترفيع من جديد في الضرائب، ألغي الضرائب القديمة.»(٧)

ويبرز من اللخبطة العامّة، تعريف جديدٌ للدولة. هو كالتالي في وضوحه التهكّمي اللاذع:

«الدولة هي الوهم الكبير الذي بواسطته يعمل الكلُّ على أن يحيا على حساب الكلّ.»(٨)

لكن، أوَ لم يشدّد هيغل على أنّه مع انعدام الفضائل الجمهوريّة، أي التوجّه العامّ إلى الخير المشترك والتقدير

---

(٧) فردريك باستيا، الدولة. المال الملعون، باريس ١٨٤٩، ص. ٦ وما بعدها.

(٨) المرجع نفسه، ص. ١١.

المتبادل (الذي نجد بقاياه اليومَ مطويّةً في شعار العلاقات العامّة: «احترام»)، الفضائل التي كان مونتسكيو يأمل منها الكثير لفلاح شكل الدولة هذا، سيتمكّن الطمع الأكثر ابتذالا من جميع الفاعلين على الساحة السياسيّة،- بل سيتعيّن أن تصير الدولة الخلو من الفضيلة، مجرّد «فريسة كونيّة»؟[٩]

عند نهاية النقاشات، يقابل باستيا نفسُه المزحةَ السجاليّةَ بصياغة أكثر جِدّية: فيقول الكاتب إنّ الدولة بصفتها قوّة مشترَكة مُمأسَسة، هي تلك المنظَّمة التي عليها أن تأخذ الضروريَّ في شكل ضرائب، وتضمن لكلّ امرئ ما يملك، ولكن لا يجب أبدا أنْ تستعمل المواطنين أداةً للقمع والتناهُب.[١٠]

كان انتقام سان-سيمون من أولئك الّذين كانوا يُنكرون فهمَه لطبيعة المجتمع «الصناعيّ»، قد تأخّر لردح من الزمن، ولكنّه كان جذريّا. في نهاية المطاف، حتّى ممثّلو اليسار الراديكاليّ لا يسعهم إلاّ أن يدركوا أنّ نهاية «استغلال الانسان للإنسان» (كان هاينريش هاينه يمتدح هذه الصياغة السان-سيمونيّة نظرا لوضوحها المحرِّر)، لا يمكن أن تحصُل إلاّ باستغلال الأرض لفائدة الانسان. وهذه الصياغة هي الرسالةُ التي تحملها الاشتراكيّة المبكّرة كما الليبراليّةُ للأجيال القادمة. ويكاد لم يرغب أحدٌ في الاستشهاد بها في شكلها الصريح، مع أنّ المعنيّين جميعا كان لهم سهمٌ في تحقيقها. ولا أحد كان

(٩) غ.ف.ف. هيغل، أصول فلسفة الحقّ، § ٢٧٣.
(١٠) باستيا، مرجع مذكور، ص. ٢٣.

بمقدوره أن يتوقّع أيَّ درجة من العدميّة الاستخراجيّة ستصفها هذه الصياغة في يوم من الأيّام. ذلك أنّ العدميّةَ الممنهَجة للمنظومة الصناعيّة كانت قد زُمّلت تحت قناعٍ قُدَّ من الجملة الرخيمة: «انبساط القوى المنتِجة».

وبالإمكان انطلاقا من هذا، أن نبيّن بسهولة، كيف تغلغلت مفاعيلُ ثورة تقانة النّار في عصر الفحم، داخل خطابات تلك العقول الحديثة التي اجتمعت على توصيف الوضع الجديد للعالَم. وبدا أنّ فجرا أخلاقيّا قد بزغ ليعمّ أوروبّا[١١]. وأخذت أشكال التقدّم نحو الأحسن تسابق أشكال إلغاء سوء الأحوال السابقة، وغدا التوْقُ فضيلةً سياسيّة. كان يوهان غوتليب فيشته هو الذي أظهر بالشكل الأوضح، ذروةَ هذا البعث والاستئناف: كان يُفترض أن يكفّ العمل الميكانيكيّ بعامّة عن «كونه عبئا؛ لأنّ الكائن العاقل ليس مقضيّا عليه بأن يكون حمّالا لأعباء»[١٢]. ومن ثمّ، كلّ ضروب الإلغاء التي أصبحت سارية منذ القرن الثامن عشر، كانت تتضمّن مباشرةً أو على نحو غير مباشر، إلغاء العبوديّة البدنيّة وأشكالِ الندرة التي ترتبط بالزراعة؛ بل كانت تستهدف القضاء على الوضع البروليتاريّ بما هو كذلك؛ وأمّا تحرير النساء من وضعيّاتهن التابعة تقليديّا وكما

(١١) هِلغه هِسّه، العالَم إذْ يُبدَأ من جديد. الحياة في عصر البعث ١٧٧٥-١٧٩٩، ديتسنْغِنْ ٢٠٢١.

(١٢) يوهان غوتليب فيشته، مصير الانسان، برلين ١٨٠٠، ص. ٢٢٣.

حدّدها النظام الأبويّ، فقد وجد هو أيضا عبارته في وثبة الحقوق الأساسيّة، وتحت الشعار النقديّ: استغلالٌ مّا يمكن أن يخفي استغلالا آخر. وإذا كان العمل المأجور للبروليتاريا ما زال يشار إليه بكثير من السداد، في القرن التاسع عشر، باعتباره «عبوديّةً مأجورة»، فإنّ استبدال العمل العضليّ بالأداء المكنيّ أخذ يرتسم في الأفق. فمع قوّة المكنة التقنيّة توضّحت طبيعةُ الاستعباد بما هو كذلك: لقد تعيّن استبعاده جذريّا من دائرة البشر الذين يعملون. وكان ما صاغه كنطْ أمرا قطعيّا ينطوي على حظر الاستعباد: لا ينبغي البتّة أن يُستعمل الانسان باعتباره وسيلة وحسب، بل يجب أن يُعتبر دوما بصفته أيضا، غايةً. وأمّا دخول الآلات الكهربائيّة المنزليّة إلى عالم ربّات البيوت فقد أظهر بوضوح تامّ، المفعولَ التحرّريَّ لاستخدام المكنات الذي يحلّ محلّ الأعمال البشريّة.

إنّ جملة الإلغاءات، سواء تعلّقت باستغلال «الأعراق» المستعبَدة أو بعمل الأطفال أو بالبغاء المرتبط بالفقر أو بضنك الإدمان على الكحول أو بالأعباء التقليديّة الملقاة على عاتق النساء، لم تُظهر فقط حسّا أخلاقيّا-سياسيّا متزايدا[١٣]. ذلك أنّها عكست في الوقت نفسه، نزعةً شاملة ضمن ديناميّة الحضارة، يمكن أن تلخّص في مفهوم تحويل الاستغلال. فهذا المفهوم يقدّم عبارة مناسبةً فكريًّا للمسار الطاقيّ الأساسيّ الذي

(١٣) دانيل لويكْ/ فانيسا إ تومبسون (تحرير)، نزعةُ إلغاء العبوديّة. برلين ٢٠٢٢.

يتخلّل كليًّا العصر العالميّ للحداثة(١٤). وهو يعبّر عن كيفيّة تلازم اقتضاء الحريّة أو الاستقلاليّة الذي ما ينفكّ يتعمّم، ومطالب المشاركة المتزايدة في خيراتٍ وفرةٍ غدت تتراءى أكثر فأكثر؛ وعكسيًّا، النفاذ الراهن أو الافتراضيّ إلى أسباب النعيم والسؤدد يقدّم دعامة ماديّة للتطلّع إلى التعيين الذاتيّ. إذا كان من الممكن أن تنتهي العبوديّة بعامّة، ويتقلّص إلى حدّ بعيد الميزُ الذي تعاني منه النساء ضمن المجتمعات الميسورة، بل يتحوّل بحسب السوانح، إلى امتياز، فهذا لا يعود فقط إلى أنّ المناخ الأخلاقيّ للجماعات الحديثة لم يعُد يحتمل ذلك، بل هذا ينفرضُ لأنّ مكامن القوى الاجتماعيّة باتت ترتكز بقدر معتبَر على مصادر طاقةِ غير بشريّة، ومن ثمّ تنتشرُ ثروات يمكن أن تُتقاسم على نطاق واسع. وتقدّم هذه الثروات لغالبيّة كبرى من أفراد الجنسيْن، وأيضا لتنويعاتهما وفصائلهما، أسباب المشاركة في الرفاه العامّ وفي درجات عالية من الحريّة والتكامل والطمأنينة. لذلك، المجتمعات الحديثة هي أقرب إلى الجماعات المستهلِكة، منها إلى العُصب المحاربة من طراز «إلى السلاح أيّها الشعب».

لقد انضافت إلى الموارد الصناعيّة للراحة البشريّة في أثناء القرن العشرين، على قاعدة تربية الحيوانات الموسّعة بل

---

(١٤) بهذه العبارة يوضّح ويصوّب مفهوم «تخفيف العبء» الذي يؤدّي دورا حاسما في أنثروبولوجيا أرنولد غيلينْ، من حيث يعطي اسما لحامل مفعول تخفيف العبء، أي الموارد الكونيّة للاستغلال: الأرض، كنوز ما تحت سطح الأرض، وعالَم الحيوانات النافعة.

المنفجرة، قطعان ضخمة من الحيوانات الدَجون، وبخاصّة من الدجاج والخنازير والأبقار، مكّنت في سياق تغذية صناعيّة تقوم على النفط، من تدفّق بروتينات لا نظير له تاريخيًّا، داخل الاستهلاك البشريّ. ومنذ بضعة عقودٍ كان جيريمي رِفكين في دراسته التي غدت مذّاك كلاسيكيّة، **ما بعدَ لحم البقر. ازدهار تربية الماشية وانحطاطُها** (١٩٩٣)، قد بيّن كيف أنّه في «امبراطوريّة البقر»، حتّى أعضاء البروليتاريا البريطانيّة أخذوا يستهلكون اللحم كما كانت تفعل طبقات الأسياد في العصريْن القديم والوسيط. مذّاك، يستهلك نصفُ أوروبّا البروتين الحيوانيّ طبقا لشعار «اشترِ اللحم الأرجنتينيّ!»،- وهذا أمر يذكّر بالعصر الذي كان ما يزال يصدُق فيه الشعار الإمبراطوريّ: «الأبقار الانجليزيّة ترعى على ضفاف الريو دي لا بلاتا.» بيد إنّه قد بات من الممكن منذ وقت طويل، استبدال صفة «أرجنتينيّ» بقائمة من الأسماء الأخرى. وكانت الصناعةُ المنتجة للّحم قد تحوّلت منذ منتصف القرن العشرين إلى غولاق كونيّ للحيوانات. وطبقا للتقديرات الأخيرة، يُذبح كلَّ عام، ثمانون مليارَ حيوان، يعود معظمها إلى تربية الدواجن؛ ويُضاف إليها من بليون إلى بليونيْن من السمك المرصود لإشباع الطلب البشريّ للبروتين وموادّ حيوانيّة أخرى يمكن استغلالها. وأمّا تربيتها فتستهلك كمّيات هائلة من الأعلاف الزراعيّة-الكيميائية ومن ثمّ، المستخرَجة من النفط (والحال أنّ السمك المعدَّ للأكل في تربية المائيّات، يُغذّى بشكل شبه أحاديّ، من طحين يُقَدّ من بقايا السمك).

إنّ الشكل الذي تبلور مع الاشتراكيّة المبكّرة وافتُرض معه استبدال «استغلال الانسان للإنسان» باستغلال الأرض لصالح الانسان، كان قد حمل على «الطبقات» الصناعيّة والعمّال ومالكي وسائل الإنتاج والمبتكرين التقنيّين، دورا رياديًّا في تحسين أحوال البشر، - حدّ إلغاء جميع ظاهرات العوَز ونقص المؤونة. وفي حين كانت الطبقة الشغّيلة المنظَّمة ضمن مسار صراعيّ جابهت فيه بعنف معسكرَ رأس المال، على مرّ قرن ونصف، قد أمّنت نصيبَها من مرابيح المنتوجات المكنيّة- الصناعيّة التي يحرّكها الفحم[١٥]، كانت المنظومة الحديثةُ للفوائض التي تسوسها المنظومة الضريبيّة للدولة بما تدبّره أشكالَ إعادة توزيع، قد سمحت بتحويلٍ مكثّف لإيرادات إجماليّة إلى فئات واسعة من السكّان الحديثين غير المنتِجين أو غير المأجورين. ومن ثمّ، كان استغلال الأرض لصالح الكائن البشريّ يحدّد أيضا بانتظام نِسب الفوائد، وبالتالي في نهاية المطاف، إيرادات المحروقات الحجريّة، في مجالات بعيدة لخلق فائض القيمة. لقد نقلت شلاّلاتٌ مركبّةٌ من التحويلات، مفاعيلَ التفاوت في الاستغلال إلى مجالاتٍ لم يعد من الممكن أن يُتعرّف فيها إلى هذه الآثار، - مع المفعول الذي يجعل أفقر الناس في دائرة الرخاء، يفعلون فعل الأثرياء في نظر الفقراء في بقيّة العالَم. وتبرهن الدولة الجبائيّةُ الحديثة بأشكال تقحُّمها

---

(١٥) ميكائيل كِتْنِزْ، صراع العمل، التاريخ والحقّ والحاضر، مونشن ٢٠٠٥.

الثابتة، كيف تُتقن اختلاسَ نصيبها من كلّ فائض،- وهذا قد يبلغ نصفَ إنتاجات القيمة كلّها. هذا ما يتطابق بحسَب التقريب، مع اكتشاف الاشتراكيّين الأوائل الذي مفاده أنّه في ما أبعد ممّا تعنيه «المسألة الاجتماعيّة» في القرن التاسع عشر، كان قد تعيّن على النصف المنتِج في المجتمعات الحديثة أن يساهم في معاضدة نصفٍ غير منتِج ولكنّه يشارك في عمل التنشئة والعناية[١٦]. أمّا المؤالفة بين الدائرتيْن فحدثت منذ القرن التاسع عشر، بواسطة منظومةِ تكوين وتربية علّمت القراءة والكتابة لما يناهز خمسة وتسعين بالمئة من مجموع السكّان، ومن ثمّ قدّمت دعامةً نظاميّةً للإيمان بالمساواة.

إلاّ إنّه كان دوما واضحا في المجتمع الذي يقوم على الاسترقاق أو الإقطاعيّ «الكلاسيكيّ»، أنّ الواحد بالمئة غير المنتِج الظاهرَ، أي الإكليروس والنبلاء («الطبقة» التي كانت تصلّي و«الطبقة» التي كانت تحمل السلاح)، كان يمكن أن تعصف به بنيةٌ تحتيّة واسعةٌ كانت تقوم على استخدام نار

(١٦) تعمل نانسي فريزرْ في مصنَّفها الرأسماليّة آكلة لحم البشر. كيف أنّ الرأسماليّةَ تستنزف أصولَها، (برلين ٢٠٢٣)، بشكلٍ لافتٍ على قلب الاكتشافات التاريخيّة رأسا على عقب، من حيث تعيد تأويل تموينِ منظومة الإنتاج الحديثةِ وتزويدِها غيرِ المنتِجين باعتباره استغلالَ «رأسماليّةٍ كانّباليّةٍ» لهم. في واقع الأمر، غدت أجزاء كبيرة من أعمال الانجاب والتنشئة والعناية الصحيّة، مرتبطةً منذ وقت طويل، بالمسار الجبائيّ لإعادة التوزيع، على نحوٍ أنّه يكاد لم يعُد من الممكن الكلام عن مفترضات ضمنْ-إجتماعيّةٍ غير مرئيّةٍ لمنظومة الاستغلال،- مع استمرار استغلال الموارد الطبيعيّة.

الخشب وتمتهن الزراعة وتربية الحيوانات والحرف اليدويّة، مع أنّها كانت تقدّم فائض إنتاج ضعيف نسبيًّا، وكانت هاتان «الطبقتان» على بيّنةٍ من أنّ هذا كان دوما يحدث بمباركة الربّ والسماء[١٧]. في المقابل، تتطوّر المجتمعات الصناعيّة المتقدّمة بنسق أسرع، نحو أوضاع يوجد فيها متلقّون كثُرٌ لمفاعيل التحويل بالنسبة إلى كلّ فرد يدفع الضرائب،- من دون أن يكون من الممكن دوما القول إنّ هذا يتعلّق بدفوعاتٍ تعوّض مساهماتِ دعمٍ للمنظومة مقنّعةً.

لقد دفعت فوائضُ الطاقات الحفريّة التي ضُخّت في الإنتاج الصناعيّ في القرنين التاسع عشر والعشرين، الإنتاج المكثّفَ للسلع حدَّ أنّه تعيّن على الموظّفين التابعين في عصر المجتمعات المصنّعة أن يصيروا أيضا، أكثر فأكثر مستهلكين لسلع تتعدّى ما هو ضروريّ. ومن ثمّ، فاقت منذ وقت طويل، البضائعُ التي تتعلّق بالرفاه المنتوجاتِ التي لها ضرورة حيويّة؛ في هذا السياق، أمست عبارة أوسكار وايلْدْ التي في محلّها: «إذا ما

(١٧) كان الملقّن المسرحيّ لستالين، نيكولاي بوخارين قد استخدم في مصنّفاته النظريّة، رمزَ 'م' للإشارة إلى مجموع فائض الانتاج لمجتمع مّا عندما يتعدّى صعيدَ سَدّ رمق الجماهير. إذا كان 'م' العصورِ الما قبل صناعيّة يحدَّد أيضا بأشكال الندرة التقليديّة، فإنّه بقي مع ذلك كافيا لتزويد الإكليروس والنبلاء لتشييد الكنائس الكبرى والقصور، ولإيالة الإدارات والجيوش والشرطة، إلخ. وفضلا عن ذلك، يبقى تصوّر بوخارين صادقا: الحداثة الاقتصاديّة تُتيح إعادة تعريف جافّةً للسياسة: فهذه لا تتحقّق بالجوهر، إلاّ بما هي صراعٌ حول 'م'.

أعطيتموني رفاها لا طائل منه، استغنيتُ عمّا هو ضروريّ»، دارجةً على لسان المتنفّجين بين الجماهير. وبإمكان المرء أن يعاين في شتّى المنتوجات، حتّى التي تُعتبر في الأثناء، أساسيّةً، علاماتِ إدمانٍ تتماثل مع استهلاك للمخدّرات يتعدّى أعراضَ الهوَس بالتسوُّق (CSD) التي يمكن أن تُتمثّل ظاهراتِ حرمانٍ محتوم في حالة انقطاع المدَد. وعليه، بإمكان المرء أن يعاين أيضا أنّ المنظومة الصناعيّة ترعى منذ ما يزيد على القرن، التابعين لها بشكل مضاعف، مرّةً باعتبارهم منتِجين مأجورين يقدّمون خدماتٍ معيَّنة، ومرّةً أخرى بصفتهم أشخاصا يستهلكون، - من دون أجرةٍ تتعدّى الاستمتاع بالاستهلاك (وبقطع النظر عن المكافآت الموجَّهة للاشْتراء والاقتناء). في واقع الأمر، لم يعُد من الممكن تصوّرُ كامل المنظومة التي يحرّكها المالُ من دون بُعدها الاستهلاكيّ للرفاه مع صناعاتها الضخمة في الترفيه والتسلية، - ولواحقها من مثْل ممارسة الرياضة والسياحة. وتعمل صحافة نسائيّة رتيبةٌ لها أصواتٌ متعدّدة، بنجاحٍ على تشكيلٍ دائم لنمطٍ من الذات شبه نسويّ يستهلك بكثافةٍ ويظهر بديناميّة نرجسيّةٍ ويحرص على العناية بنفسه في البيت كما في المكتب، نمطَ ذاتٍ خُفض لديه العامل الذكوريّ إلى عائق يحول دون الاستقلاليّة، أو في بعض الحالات، إلى عنصر عرَضيّ. أمّا خدمات الإيصال التي تتكاثر وتنمو هذه الأيّام بسرعة فائقة، ولا سيّما في المراكز العمرانيّة، فتُظهر فضلا عن ذلك، أنّ جزءا من «عمل الاستهلاك» يمكن أن يوكَل إلى عالَم أوسطَ من الموزّعين. ذلك أنّ رقْنَمةَ عرض

السلع من حيث يُعهَد به إلى وكالات «الديليفري» تكون كليًا في خدمةِ تقليص الضغط على المستهلكين. فترى بعض الشبّان البرلينيّين المحترفين يتزوّدون من دون مغادرة بيوتهم، بإوزّة عيد الميلاد ولواحقها كلّها وبدرجة الحرارة المطلوبة. وبالإضافة إلى ذلك، تُغرقُ صناعةٌ توسّعيّةٌ ومكتسحِةٌ في مجال الصحّة والتجميل والرفاهيّة، مجتمعاتِ أوقات الفراغ المتطوّرةَ، بوابلٍ من العروض الأخرى تتعلّق بوسائل رعاية الذات والاستمتاع بها. وبالنظر إلى عوالم الاستهلاك، يجب أن نلاحظ أنّ سلطة المستهلكين لم تنظِّم إلى الآن بشكل فعّال كما فعلت سلطةُ المنتِجين في أوج الحركة العمّاليّة مع ورقتها الرابحة التي هي الإضراب. إذ أنّه مع استبعاد المستهلكين وحصرِهم في مواقف هي في الغالب انفعاليّة، نعاينُ أنّ منظومة النفط والغاز لم تسمح لأسباب تقنيّة، بنشأة نخبةٍ من بين صفوف المنقِّبين على النفط والغاز.

ولكي لا نذكر إلاّ أضخم الأرقام، نقف عند واقعةِ أنّه في ٢٠٢١، استُخرجت وأحرِقت في العالم، أكثر من ٨،١ مليار طنّ من الفحم الحجريّ (منها ما يناهز النصفَ في الصين) و٤،٣ مليار طنّ من النفط (ينضاف إليها عامل الغاز الطبيعيّ بما يفوق ٤ مليار متر مكعّب)، استُهلكت في المقام الأوّل بهدف توفير «الطاقة وحسب» أو في لغة فيزياء الطاقة، «الكهرباء»، وهذا ما يُنتج لكلّ فرد كهل من أفراد المجتمعات الصناعيّة، فائضَ قوّةٍ قائما سيتناسب (بحسب ما يُنفق في الحركة والسفر والملبس وتهذيب المسكن والمأكل) مع قدرةِ أداء من عشرين إلى خمسين

عبدا منزليًا، وأكثر من ذلك في حالات معيّنة. ومن ثمّ حوّلت المكاسبُ الضخمة في ما هو تحت التصرّف بمقتضى انتشارها الواسع في غضون بضعة عقود وبخاصّة بعد الحرب العالميّة الثانية، نمطَ الحياة حتى الذي للطبقة الوسطى والفئات الشعبيّة. وانتقلت المعايير الجديدة لما يسمى مذّاك «معيار الحياة» و«معدّل الحياة»، حدًّ أنّ ذكريات نظام التقشّف القديم وما كان يلازمه امتناعا عن المطالبة بالاستحقاقات، قد أخذت تتبدّد. أمّا الانتظارات التي تتعلّق بالنصيب من النِعَم غير الضروريّة التي تتدفّق بكثافة وبكيفيّة شبه مجهولة، فقد تحوّلت إلى طبيعة ثانية بالنسبة إلى أغلبيّات واسعة. وساهمت «نيران الحسَد والغيْرة»[18] في تنميط جماهير المستهلكين وتزْمينهم. وأمّا أشكال المحاكاة الأفقيّة التي تفعل فعلها بين أشخاص متعاصرين، والتي لا تفيد مفردةُ «موضة» السارية، دلالتها الفائقةَ بالنسبة إلى مسار التحديث، فهي في المقام الأوّل التي تحرص على قصارى ذَرّ محمولاتٍ ولواحق أسلوب الوجود المستقلّ ذي السيادة، وعلى رأسها العوامل التقنية التي تخصّ الذات وتبدو على أنّها لازمة: الهواتف المحمولة والبطاقات البنكيّة والحواسيب الشخصيّة.[19]

(١٨) رنيه جيرار، شكسبير. مسرح الحسد والغيْرة، مونشن ٢٠١١.
(١٩) بيتر سلوتردايك، «الانسان الكاسِب. ملاحظاتٌ حول الانسان الحديث بصفته مالِكًا لقوّة الشراء»، ضمن: بوهانّس بيرْمان (تحرير)، القرن العشرون لليورو. حول مستقبل نقودنا، مونشن ٢٠٢٢، ص. ٣٠٨-٣٢٥.

٥

قوًى أخرى، نيرانٌ أخرى

تصبّ أزمات الحاضر المتعدّدةُ في تشخيص متماسك. وفي هذا التشخيص تقريرٌ بأنّ مجموع المفاعيل لتحويل الاستغلال في عصر الطاقة الحفريّة لم يعُد يُشبع المتطلّبات المعقولة للاقتصاد الغابيّ المستدَام. والحقّ أنّه لا أحد سيرغب في التخلّي عن مكاسب نمط الحياة الجديد، وبخاصّة تلك التي تتعلّق بالتخفيف عن النساء من عبء إكراهات تدبير شؤون البيت الريفيّ والبروليتاريّ والبرجوازيّ الصغير. في كامل الدائرة الغربيّة، يمثُل منذ وقت قصير، تحرير الميول الجنسيّة للأقليّات التي كانت في الأصل مقموعة، بما هو أداء أخلاقيّ رفيعٌ للحضارات التي لها منزع تخفيفيٌّ قويّ،- بل ارتفع التسامح أو غياب التسامح مع المثليّة الجنسيّة بين عشيّة وضحاها، إلى منزلةِ مقياس في تقويم الحضارات غير الغربيّة، كما لو أنّ عدم الانجاب قد صار عِيارا للإتيقا المتحضّرة. وإذا كان بمقدور المجتمعات المتطوّرة أن تعتمد مثل هذه التقويمات الجديدة التي ظهرت إن جازت العبارة، بين عشيّة وضحاها وثُمّنت مذّاك

بكيفيّة ملموسة، فهذا يعود إلى علّة نادرا ما أُخذت بعين الاعتبار أو على الأقلّ نادرا ما فُسرت بشكل صريح: أعني أنّها قد انتهت عن اعتبار إنجاب خلَفٍ وتنشئته أرصنَ المهمّات الاجتماعيّة وأعجلَها،- وهذا تحوّلٌ في النبرة يجد عبارتَه على كلّ حال، في سياق أزمةِ منظومة العلاج والرعاية. وبما أنّ الضغط الديموغرافيّ، ويمكن القول: الأمر القطعيّ بالإنجاب داخل شعب أو جماعة تقوم على زواج الأقارب، يكاد يكون قد زال في كلّ مكان من أوروبّا، فإنّ بنيته الفوقيّة الأخلاقيّة الطاغيةَ على مرّ آلاف السنين، وما أنتجته تحريما صارما للإيروسيّة المثْليّة الموجَّهة ضدّ الانجاب بين الجنسيْن، قد اعتُبرت هي أيضا ممّا لا ضرورةَ له، وبشكل فجائيّ يكاد يكون كارثيّا. ومن ثمّ، لم تعُد المجاهرةُ بميول تتنزّل على هامش القطبيّة رجل/امرأة، محظورةً لدوافع تقليديّة مُذ أخذ التطوّر ينجرف بعامّة، إلى الأقلّ الديموغرافيّ. ويبقى الصنف الكماليّ «ولد» إلى حين إخبار آخرَ، حكرا على تكويناتٍ أزواج «ثنائيّة» مستعدّة للتضحية، بقطع النظر عن حالات التبنّي النادرة لدى الأزواج التي من نفس الجنس، وليس لها أيّ وزن معتبر ضمن المنظومة. أمّا العلاقة بين التركيبات الباذخة للجنسانيّة غير الثنائيّة وغير المنجِبة وبين أنماط الحياة المخفَّفة على صعيد الطاقات الحفريّة، أو أشكال الارتباط التي من دون تضحية بالذات، فلا تكاد تُتفكَّر في أيّ موضع كان. حتّى الأمّهات الإيطاليّات أو الإسبانيّات لم يعدْن يرغبْن إلاّ نادرا في تقمّص وضعيّة أمّ المسيح، في حين تنغمس مادونا في مشهدٍ مخترعةٍ

لهويّة سيّالة. فهل كانت تخمّن أنّ تعدّد أشكال أدائها المرحَ يعكس غياب صفات النفط ورسالتَه في «أنّ كلّ شيء على ما يُرام»؟ لقد دخل التجريب المضادُّ للنسابة كليّا في مرحلة الأزمة الدائمة مذْ لم يُعد الأجداد مرتبطين بالأنجال إلاّ بواسطة منظوماتٍ معاشٍ تقاعدٍ نكرةٍ، مع انهيارٍ مستمرّ لأشكال التعاضد الأسريّ التقليديّة.

وأسهل من ذلك بكثير أن نتعرّف إلى وزنِ رفاه سهولة الحركة التي نُقلت إلى الجماهير، في تحقيق أنماط الحياة التحرّريّة، حدَّ الانحطاط الظاهر لسياحة الجنس والكحول ولصناعة الرحلات البحريّة الرائجة. في المقابل، ليس اتّفاقا أنّ بعضا من أكبر منظومات التطفُّل الحفريّ من مثل العربية السعوديّة وإيران، وأيضا روسيا منذ وقت قصير، تصدّ بواسطة نزعة محافظة مصطَنَعة، مفاعيلَ التحوّل الثقافيّ التي نعاينُها في المجتمعات الغربيّة، ونراها تطرُق أيضا أبوابَ تلك المنظومات، إن لم تكن قد وطئت بعدُ أراضيها. ذلك أنّ مستبدِّي النفط والغاز في الشرق والجنوب، يخشون تحرّر الأهالي الذين غالبا ما يزالون مقيّدين بذهنيّات أسريّة تعود إلى العلاقات القبَليّة، وبخاصّة في ما يتعلّق بنسائهم. ويخشون أكثر من ذلك أن يُنتزع سلطانُهم بما أنّ منزلتَهم أسيادا مشروطةٌ كليًّا باستئثارهم عرَضيّاً بمخازن الطاقة الحفريّة. وهذه المخازن هي التي تمكّن من إرساء دولِ كواليس دَعيّةٍ وسلوكات بهْرَجٍ حداثويّة تعكس تنافرا قويّا مع الأداء الحضاريّ للمناطق التي استثرت بكيفيّة سريعة.

عن الانتقال المشار إليه من «الخجل البروميثيوسيّ» كما كان قد أسماه أندِرْسْ، إلى الندامة البروميثيوسيّة التي يعي الجبّار معها أنّه كان خيرا سيفعل لو لم يجلب قطّ النار إلى الانسان، ينتجُ السؤال عمّا يمكن أن يحلّ محلّ احتراق الغابات والأدغال. ذلك أنّ حركة غرس الأشجار المبجّلة في العقود الأخيرة، مشحونةٌ بقوّة رمزيّة معيّنة تشي بالتعاطف؛ وليس لها علاقة وطيدةٌ مع منطق إحياء الجِراجة الزراعيّة المستدامة. فالنمط الإجرائيّ الطاغي يبقى قائما جذريًّا، على الاستخراج، ونكاد لا نجد فيه أثرًا لحسِّ الانْبات من جديد. وإذا كان العالَم بأسره يتزيّن اليومَ بالعلامة التجاريّة «استدامة»، فإنّ الأمر غالبا ما يتعلّق بعامّة، بكذبة ذاتيّة ورِعة (باستثناء بعض المشاريع المُقْنعة على الصعيد المحلّي). ومن ثمّ نتخدّر بوهمِ أنّنا نفعل شيئا لصالح مسارات الإحياء في مجملها، بأن نخفّض من درجة حرارة الغُرف ونعزلَ المباني ونقود سيّارة كهربائيّة، ومع ذلك يبقى بديهيّا أنّه لن يُغرَسَ أبدا من جديد هكتارٌ واحد من دغْل أو مستنقَع تحت أرضيٍّ أتت عليه النيرانُ فحما أو نفطاً أو غازا. وفي الغالب، ما زلنا في ما يتعلّق بنظام الطاقة بعامّة، مبرمَجين على منوال المستهلِك الأخير. ما من «وصيّةٍ طاقيّة»، لا في صياغة فلهلم أوسفالد لعام ١٩١٢ («لا تبذّر أيَّ طاقة، بل استعملْها!»)، ولا في تصوّر هرمان شيرْ لعام ٢٠١٠ («الانتقال إلى الطاقات المتجدّدة هو مئة بالمئة في متناول الإرادة السياسيّة»)، بإمكانها إلى حين إشعار آخرَ، أن توقفَ الاحتراق (إكْپيروزيسْ) الكبير (ما لقّنه هيراقليطس ثمّ الرواقيّون ويرد كذلك

في الميثولوجيا الجرمانيّة، تبدُّدا آخَرَ للعالَم في النار). ذلك أنّ تكالب الأمم الكبرى على الفحم، من مثل الصين والهند والولايات المتّحدة الأمريكيّة، وما لا يعدُّ من الدول الصاعدة، سيحول في العقود القادمة، دون إطفاء النّار الكبرى. وسيعوق عنه أيضا التعطّش الدائمُ إلى المحروقات الذي يطغى على الأساطيل المدنيّة والحربيّة التي لم تزل تُجّهزُ بمحرّكات الاحتراق، وتتكوّن من السيّارات الخفيفة والشاحنات والجرّارات والدرّاجات الناريّة والصهاريج وسفن الشحن وقوارب الصيد والأطواف والطائرات الحربيّة. ويُضاف إليها عدد معتبَر من سفن الرحَلات البحريّة الترفيهيّة واليُخوت والطائرات التي على ملك الأشخاص، - كلّها في خدمةٍ دعوى حركيّة لا نظير لها تاريخيّا، تحمل طابع رفاهٍ ظاهر.

لو أردنا إظهار إمكانيّات البعث والتجديد في عصر الندامة البروميثيوسيّة، لتعيّن أن نبيّن في المقام الأوّل هل أنّه من الممكن تصوّرُ أن يتخلّى الانسان من جانبه عن هبة النّار وبأيّ كيفيّة سيتخلّى عنها، -أو على الأقلّ، أن يكتفي بقبولها على قدر ما يتناسب مع المناخ. ونلامس بهذا التفكّر أفقَ التكنولوجيّات الراهنة والممكنة التي يمكن تسميتُها بالما بعد بروميثيوسيّة. مع هذه التكنولوجيّات يُلغى استعمال النّار واللهيب ويُستبدَل بواسطة مساراتٍ طاقيّة لا تقوم على تقانة النّار (حيث تؤدّي مفردة «بديل» دورا مشكوكا فيه، إذ توحي بأنّه بالإمكان فعل الشيء نفسه ولكن بشكلٍ «مختلف» وحسب). هنا يمكن أن نحيل على سلّم واسع من إمكانات تحصيل الطاقات المتجدّدة: وتمتدّ من التقنية

الشمسيّة التي يُشاد بها في كلّ مكان إلى القوى التي تُستخرَج من الرّيح، ومن الماء الذي يسيل وينهمر، ومن مدّ البحر وجزْره، مرورا باستخلاص الغاز البيولوجيّ من تخمّر الموادّ العضويّة، من دون أن ننسى الحرارة الأرضيّة الضعيفة.

وتتبدّى من هذه الإجراءات، خِلْقةٌ جديدةٌ تستند في شطر منها إلى طرائق ثبتت صلاحيّتُها بما هي خلقةٌ تقنيّةٌ-ثقافيّة، يمكن أن يُشار إليها باعتبارها مسالَمة طاقيّة. ومثاله أنّه يمكن أن نتصوّر مزارع ميكروبيّة كبيرة ستنتُج فيها تحوّلاتٌ لموادّ أوّليّة عضويّةٍ يمكن أن يستخدمها الانسان وسائلَ تغذية،- وفي هذه الحالة، لن يحقّق «الايْضُ والطبيعةَ» بواسطة عمل الانسان، بل بواسطة أنظمة عضويّة بيوميكانيكيّة تشبه الفطريّات، وعلى طراز صناعة لبَن ضخمة. ويُفترض أنّ إواليّاتِ استعادة من جنس جديد، أنيقة وغير باهظة، ستفعل فعلها على نحوِ أنّه حتّى كمّيات صغيرة من الطاقة الحركيّة يمكن أن تغذّي الشبكات الكهربائيّة والخزّانات: سيُنتج ماراتونٌ حضريٌ بغلاسكوْ يجمع خمسين ألفَ عدّاء يحملون معدّات مناسبة، أيّا كان نسقُ الأسرع من بينهم، ما يكفي من التيّار الكهربائيّ لتزويد قرية اسكتلنديّة تتألّف من ألف ساكن ولمدّة شهر، بكمّ مناسب من حاجيات الطاقة، بما في ذلك إعداد البيض اليوميّ الذي ينتج عن التربية البيولوجيّة للدواجن، ويُطهى بدرجة ٦٥. كلّ جولة على الدرّاجة الهوائيّة، وكلّ صعود على السلالم، وكلّ نزهة في الهواء الطلق، وكلّ ساعة تمرين في ستوديو الفتْنِسْ، وكلّ حركة بواسطة المصعد، وكلّ سفرة بالقطار، ستُحوَّل إلى عامل منتِج

بواسطة التكنولوجيا الذكيّة. بالنظر إلى المنظومات الميكروطاقيّة الخلوِ من النّار في المستقبل، يمكن للمرء أن يغامر بتقديم الطرح التالي: لقد بدأ توّا تاريخ صناعة الطاقة الذكيّة، وبخاصّة في المجال الميكروتقنيّ.

في الوقت نفسه، ستكون للتحوّل إلى أشكال «مسالِمة» في اكتساب الطاقة، استتْباعاتٌ جذريّة في ما يخصّ مورفولوجيا الثقافة. فهذا التحوّل لن يدفع فقط بقوّة النزوعَ إلى الاقتصادات المحليّة، بل سيقدّم أيضا الدليل على أنّ التعايش والتفاعل بين البشر ضمن جماعات واسعة من طراز الدول الأمم الحديثة التي تضمّ عددا ضخما من السكّان يتعدّى عتبةَ الخمسين أو المئة مليون، داخل مدن كبرى ذات كثافة سكّانيّة مشطّة، قد مثّلا ضلالا لتاريخ الحضارة، كما كان كذلك الانحراف الديموغرافيُّ لدول كثيرة (الأوروبيّة إلى حدود ١٩٠٠، ودول الجنوب بعامّة في القرن العشرين) كانت نسَبُ الولادة المرتفعة جدّا فيها قد أوقعتها في مصْيدة مالتوسيّة(*). ومن ثمّ، وحده تقليص تدريجيٌّ للوحدات السياسيّة يمكن أن يساعد على القطع مع بناءات المجتمعات الكبرى الهجينة والمسرفة، بما في ذلك المدائن الكبرى، وكما تحثّ على ذلك باستعجالِ الإيكولوجيا العالميّة. ومعلومٌ أنّ علم العمران اليوم يشهد منذ ردح غير يسير من الزمن، خصومةً تتعلّق بمعرفة هل أنّ مدن المستقبل الكبرى المحوَّلةَ بكيفيّة حصيفة، ستساهم في «إنقاذ الكوكب» أو أنّها

(*) نسبة إلى روبرت توماس مالتوس (١٧٦٦-١٨٣٤).

ستتحوّل إلى مكّناتٍ قيامةٍ هوجاء قد لا يُقذف بها فقط في أحوال شواشيّة من جرّاء تقلّبات التزوّد بالطاقة واختلالات سلاسل التوزيع، بل باتت تمثّل باعتبار الكثافة المشطّة، تكويناتٍ ليس يمكن تسييرها من المنظور النظاميّ. وعليه، كلّ جسم سياسيّ- اجتماعيّ كبير يضمّ أكثر من خمسة عشر أو عشرين مليونَ عضو، سيتعيّن على أساس اعتباراتِ الحدود الإيكو-رياضيّة، أن يوضع داخل دائرة الاستبعاد الشكليّ؛ وكلّ تجمّع سكانيّ حضريّ يتعدّى الخمسمئة ألف ساكن، سيتوجّب اعتباره نكبةً تصيب الحضارة،- مع استثناء حالات سعيدة نادرة. أمّا تفكيك فضاءات المدن الكبرى فسيصير في القرون القادمة، المهمّة السياسيّة-البنيويّة الأكثر تفجّريّة. ويمكن في حضارة لها حسٌّ الأحجام أن تنكشف وظيفةُ عمدة أو والٍ حصيفيْن أكثرَ إنتاجيّةً من وظيفة وزيرٍ يعمل على تسيير ولايات شاسعة بواسطة توجيهاتٍ مختصَرة تجهل الواقع المحليّ. ومن ثمّ سيُصاغ شعار الإصلاح العمرانيّ كالتالي: المدينةُ المأنوسةُ بختٌ، أمّا التجمّعات الحضريّةُ الكبرى فوَبالٌ مشيَّد.

وفضلا عن ذلك، يمكن في نهاية المطاف أن تُخلِّصَ الوعودُ التي تتعلّق بأشكال الحياة الديمقراطيّة في الأزمنة الحديثة من التباسات المنظومات التمثيليّة وتُحوِّل إلى أحوالٍ ديمقراطيّة فعليّة. وبإيجاز، يمكن أن تخلّص هَلْفَتْيَسَةُ(*) الكوكبِ وحدها الحضارةَ العالميّة من الخطوات العنيفة للدول والمدن الكبرى

(*) نسبةً إلى كلود أدريان هيلفتيوسْ (١٧١٥-١٧٧١).

التي تخطوها نحو تدمير الطبيعة والذات. فكلّ ما ليس هو بضخم وحسب، بل هو «ضخم جدّا»، ضخم بكيفيّة مضرّة، يمكن أن يُتصوّر اليومَ على أنّه يَعدم المستقبل نهائيّا،- على الرغم من أنّها البنى الكبرى تحديدا، سواء كانت دولا أو مؤسّسات متعدّدة الجنسيّات، هي التي تتفوّق راهنا في لعبة اللّغة النهِمةِ في المستقبل كما في التشويرات الاستشرافيّة.

مثْل هذه الاعتبارات ماثلةٌ بعدُ في صياغات معدَّة للطباعة، وأمّا ازْدراءُها فترجّحه ولا ريب الكوارثُ أكثر ممّا ترجّحه أشكالُ التحذير والنُذُرُ،- وكان كارل فردريش فون فَايْتْسْزِكِرْ هو الذي نحت العبارة التعليميّة-النبوئيّةَ «نُذُرُ الكارثة»: كان يُفترض أنّها تدلّ على أحداث عنيفة بالقدر الذي يكفي لإثارة مساراتِ تعلّم، ولكن ليست مع ذلك مدمّرةً بالقدر الذي يقتضي العودةَ إلى الحياة الوحشيّة نتيجةً لتلك الأحداث. ومن ثمّ، بإمكان المرء أن يتوقّع أنّ أشكال التكيّف الخلّاق مع الأفكار الجديدة والأحوال الحادثة ستقتضي قرونا مشحونة بالصراعات والنزاعات.

لقد أخذت تظهر الآنَ للعيان من بين تركيبات الأزمة الراهنة ذات الأبعاد المتكثّرة، المسألة الصينيّةُ على أساس ديناميّتها الداخليّة. ذلك أنّ تكوينا امبراطوريّا من مثل الجمهوريّة الشعبيّة التي تعُدّ المليار نسمة يمثّل بالنسبة إلى بقيّة العالَم، من حيث مجرّدُ وجوده واستحالتُه الإيكولوجيّةُ على المدى البعيد، عائقا يصعب تجاوزه ويحول دون كلّ عمليّةِ خروج بالبشريّة من مآزق التسيير السياسيّ للوحَدات الكبرى، ومن ثمّ التذكير الدائب

بالطابع المتهافت للتكوينات السياسيّة ذات التوسّع المفرط، الذي هو جزء لا يتجزّأ من دروس العلوم الانسانيّة الراهنة. فما من سبيل تفضي إلى تفادي اعتبار المنظومة الصينيّة في وضعها الراهن، أخطرَ عدوّ للجنس البشريّ، - بعد أن عملت لردح من الزمن على أن تصدُق بصفتها ملاذا برّاقا للآمال الكبيرة؛ وهذا لا يتعلّق فقط بخُبثها الإيكولوجيّ الراهن. ذلك أنّه حين تعمل المنظومةُ بواسطة الوسائل القصوى للسيطرة البوليسيّة على المواطنين، على مواجهة التناقض القائم بين الإيديولوجيا الاشتراكيّة وبين نمط الاقتصاد الرأسماليّ المشطّ، فإنّها تطوّر كأنْ بالضرورة، نزوعا إلى التخلّي عن التقيّد الذاتيّ التقليديّ لمملكة من «ممالك الوسط». وكان قد تعيّن أن تشرع آجلا أم عاجلا في تحويل ميلها إلى حفظ الذات إلى مشروع في التوسّع. أمّا ازدراء القيادة الصينيّة والساهرين فيها على التوجيه الإيديولوجيّ، لحقوق الانسان باعتبارها وهما إمبرياليّا للغرب، فيكشف كيف يعلم المرءُ هناك، على وجه التحديد، أنّ بناء المملكة وشوكتَها لا يمكن صونهما إلاّ بواسطة أشكالٍ قمع صارمة، وتحييد نظاميٍّ للميول إلى الحريّة والانشقاق، وديماغوجيا جماهيريّةٍ قوميّة، وفرضٍ نزعة عسكريّة، واستخدام للمحروقات الأحفوريّة لا يمكن إلى حدّ الآن تكميمُه، - ثمّ إنّه لا أحد يعلم علم اليقين هل يمكن أن تُثبت الأحداث من الآن إلى منتصف القرن الواحد والعشرين، الإعلان مرارا وتكرار عن خسْفٍ واسع للكربون، بل يبدو هذا بالأحرى على أنّه محال. ولا ريب أنّه من بخت القيادة الصينيّة أنّها استطاعت أن تستظلّ

مؤقّتا بظلّ فلاديمير بوتين الذي هو الآن أكثر التجسيدات بداهةً لعدوٍّ للجنس البشريّ. ويندرج ضمن هذه اللوحة المستشكِلة أنّ الصين تسلك في مسألة الرِقّ مسلكا مريبا. بالطبع يفتخر النظام بأنّه قد حرّر نتيجةً للثورة التي قادها ماو تسي-تونغ، مزارعيه الفقراء من الاستغلال الإقطاعيّ، ولكنّه يُخضع مواطنيه الذين يُزعم أنّهم أحرار، إلى منظومة مراقبة قمعيّة لا مثيلَ لها تاريخيّا تسند إلى الأفراد جميعا (إذا ما نظرنا إليها من الخارج) أدوارا شبة استرقاقيّة. وفي الوقت نفسه تبدو أغلبيّاتٌ واسعة (نتحدّث هنا عن ثمانين بالمئة من المؤيّدين لمنظومة الائتمان الاجتماعيّ) عل أنّهم راضون بمسار ترويضهم. فمعظم الصينيّين الذين يعيشون في مناطق من الرفاه النسبيّ، قد اعتنقوا خلال بضعة عقود، نزعةً فردانيّة استهلاكويّةً غيرَ سياسيّة تحمل إيقاعاتٍ جمْعويّةً تقليديّة. وتترك المنظومة عددا غفيرا من المواطنين يعيشون خاملين في أحوالٍ شبه عبوديّة، أعني الأقليّات العرقيّة-الدينيّة من مثل جماعة الأيغور الذين اعتنقوا الاسلامَ منذ القرن الرابع عشر، وهم أخلافُ إمارة من إمارات السباسب التي كانت لها اليدُ الطولى في وقت مّا، ولكن أعني أيضا جماعاتٍ كبيرة أخرى من بينها أتباع مذهب الفالونْ غونغ الذين يقبعون في السجون؛ فالمنظومةُ تغطّيهم بصيغ لغويّة برّاقة لا يراد أن يُفهم منها إلاّ التهذيبُ والملاءمة. ثمّة منظومةُ غسل دائمٍ للأدمغة تكاد تخلو من أيّ ثغرة، تشمل الأجيال كلّها، وتُنتج عند معظم أفراد التصْيين الجبريّ، ضربا من الرضا سيُلزمنا تأويله وتشخيصه بالعودة إلى سجلاّت سيكولوجيا اجتماعيّة سوداء.

بقي أنّه علينا أن نلاحظ تبعا لتفسيرات الخُبراء، أنّ اللّغة الصينيّة قد تطوّرت منذ آلاف السنين، لتصير رحِما نحويّا لنمطِ كيانٍ خَدومٍ موجَّهٍ للوجود ضمن الجماعة، في سياقٍ واجب طاعة الآباءِ وأسياد الإمبراطوريّة. هو ذا ما يذكّر من بعيد وبخاصّة من حيث الأبعاد شبه الإقطاعيّة، بالمقارنة مع عادة العبوديّة الطوعيّة التي تمكنّت هي أيضا من الانسان الغربيّ منذ الإمبراطوريّات القديمة.

سيتعيّن في نظامٍ مسالمة طاقيّة أن نكتشف ونقف قدر الاستطاعة، عند الخطأ الرئيسيّ لمسار الحضارة الجاري إلى الآن. لقد كانت زلّةً مشؤومة مع أنّها طبيعيّة جدّا، أنّ القانون الدوليّ قد أقرّ للدول القوميّة من دون إنعام نظر ومساراتِ تفحُّصٍ مناسبة، بملكيّة ما يُدعى «الثروات المعدنيّة» الموجودة في أراضيها، من حيث اعتبر تلك الدولَ الوكالات المعاصرةَ لتدبير سعادة البشر وشقائهم. لقد بدا بديهيّا جدّا للوهلة الأولى، أن يُعتبر أيضا الاستيلاء على الأراضي التابعة للدولة غنائمَ مشروعة. فنقلت ملكيّةُ خيرات الأجْواف إلى أسياد الأقاليم الذين نُصّبوا عليها اتّفاقًا، أيّا كان ما وُجد أو استُخرج حديثا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة أو في المملكة العربيّة السعوديّة أو في إيران أو في روسيا أو في أيّ مكان آخرَ، بدلا من اعتبارها منذ البداية، إرثَ ثروات معدنيّة كونيّة في تناسب بعيد مع الموضوعات التي تعرّفها منظّمةُ اليونسكو بـ«التراث الثقافيّ العالميّ» للبشريّة. ومن ثمّ يُفترض أن يُعتبَر «المالكون»

القائمون على تلك الخيرات، مجرّدَ أُمناء على ثروة من ثروات البشريّة، - فلا يجوز لهم أن يتمتّعوا من نصيبهم بأكثر من الفوائد التي تعود إليهم طبقا للقانون، من حيث ما يبذلونه جهدا في الاستخراج والصيانة والحفظ. لكنّ التطوّر الفعليّ أظهر في المقابل، أنّهم بمقتضى كاملِ حقوق صفةِ المالكين القائمين عليها، يتصرّفون جميعا كأنّهم يختصّون حقَّ الملكيّة بالتمام، مع ما ينتُج عن ذلك تفقيرا نهائيّا للجميع داخل اقتصاد عالميّ يتأسّس في مجمله على ما لا يُدركُ بالعين المجرّدةِ امتيازاتِ نهبٍ تعود إلى مالكين بالاتّفاق فاسدين أسكرتْهم ثروتُهم الفجائيّة؛ وما يزال هذا ساريا في المقام الأوّل، من جرّاء الحريق المنظَّم والدائم الذي تسهر عليه في الأدغال العميقة، الشركاتُ الصناعيّةُ ودولُها التي تحتذي حذوَها. وعليه، لا ريب أنّه لن يكون ممكنا ذاتَ يوم، حين سيوشك استنفادُ الموارد، أن نُدينَ الممارسات الراهنة باعتبارها جرائم انتزاع، كما نُدين اليومَ أوجُها شتّى للكولونياليّة ونشتكي من أضرار الانبعاثات النوويّة التي هي أشدّ خطرا من الأشكال السابقة للإفراط في استعمال تقانة النّار. ذلك أنّ خبث المنظومة القائمة يتجلّى بخاصّة على نحو فاضحٍ، مع مثالِ منظومةٍ أحفوريّة-طفيْليّة صِرْفٍ، كما هو الحال مع روسيا التي فضلا عن ثرواتها المعدنيّة السائلة والغازيّة، لا يمكن أن تقدّم إلاّ ما لا نظيرٌ له فائضَ تصدير للأكاذيب وأشكال تثبيط الهمّة الطوْعيّة.

ومع ذلك، يُفترض أنّنا قد نجد سهمَ تعبير عن التهاون في نقل إرث الثروات المعدنيّة العالميّة إلى جماعة الشعوب، في

الفكرةِ السارية منذ ردح يسير من الزمن، بين الأوساط ذاتِ الحسّ الإيكولوجيّ، والتي مفادها أنّ ما يسمى «ثروات معدنيّة» يجب أن تُتركَ إلى وقتٍ لاحق، في مواقع تخزينها حتّى يكونَ للأجيال القادمة نصيبٌ في الثروات التي ما زالت لم تُبدَّد نهائيّا. وسيكون ما يدعى بالأمم المتّحدة منظَّمةً أقلّ تهريجا لو طالبت وتحصّلت في حينه على سلطة سنّ قانونٍ سارٍ بناءً على ضرورة حفظ الإرث العالميّ للثروات المعدنيّة. وبدلا من ذلك، تعني «السياسة العالميّة» اليومَ، في مجملها، مسارا ذا عوامل متعدّدةٍ، مشبَعا بالخُلْف، تصير فيه قوى رئيسةٌ وتابعةٌ جنبا إلى جنب، أطرافا تشاهد تمثيليّاتٍ خلوٍ من استشراف المستقبل.

علينا ختاما، أن ننعم النظر في الخيارات المفتوحة التي تتعلّق بافتراض أنّ ندامةَ بروميثيوس وما ينتُج عنها براغماتيّةً إيكولوجيّةً لن يوجّها لاحقًا، مجرى التطوّر. ذلك أنّنا نعاين بالأحرى ظهورَ تمرّد بروميثيوسيّ محدَث، لكي لا نقول تمرّدا يغالي في البروميثيوسيّة. أمّا الوجهة التي تتّخذها مثلُ ردود الأفعال هذه فيمكن أن نُظهرها من حيث ما يُبذل منذ نصف قرن، مجهوداتٍ لترويض القوّة الذريّة. ذلك أنّه مع استغلال الطاقة الذريّة في شكل تفاعلات مضبوطة للإنشطار النوويّ، توخّت بروميثيوسيّةُ القرن العشرين التي بلا ندامة، خطّةَ إضرام نار في ما أبعد من تقانة النار التقليديّة، وعلى هامش تجليّات النار واللهب التي خُبرت إنسانيّا. وترتسم على الخطّ نفسه، البرامجُ التوّاقةُ إلى تطويع الانصهار النوويّ استجابةً للمطلوبات

الطاقيّة للقوى الدوليّة. وليس يخفى من ثمّ، أنّه قد ارتسمت في الأفق أشكالٌ أخرى لإبطال الطابع الديمقراطيّ للتقنية الكبرى، - أشكالا ستنتُج عن التبعيّة لدولة لها اليد الطولى في المراقبة وستُلزم بما هي وَكالةُ الوكالات جميعا، المؤسّساتِ القائمة على الطاقة الكبيرة. هذا ما يصدق أيضا على مشاريع التقليص المكثّف من ثاني أوكسيد الكربون في تجاويف ما تحت الأرض. وما يُشير أيضا إلى توجّه يغالي في البروميثيوسيّة، أشكالُ تدبُّر مسألةِ إمكان تحويل الطاقات الضخمة للسوائل المحترقة في باطن الأرض، إلى موارد يمكن استغلالها بشريًّا، بواسطة تقنيات جيوحراريّة قويّة. فبدلا من أن تُترك البراكين في ثوَرانها غير المضبوط، يبدو أنّه من الطبيعيّ أن توصَل بمحطّات توليد كهربائيّ تشيَّد في باطن الأرض. وهذا ما قد يصبُّ بالنسبة إلى الثقافات الحديثة، في نزعة طاغية تتعلّق بتاريخ الذهنيّات وديناميّة الأديان. فبعد أن خيّبت آلهةُ الأعالي آمال البشر بشكل أو بآخرَ، يبدو التحالف مع جبابرة ما تحت الأرض أكثر جاذبيّة. كذلك يمكن أن تُقرأ جملة فرجيل (الإنّيادة VII، ٣١٢): «سأحرّك نهر العويل وأدكّ عرش الجحيم»، باعتبارها رسيمةَ سيناريو حلمٍ يقظةٍ يتعلّق بتقانة البراكين.

لا ريب أنّ القرن الساري سيشهد مواجهةً بين التيّارات الما بعد بروميثيوسيّة والتيّارات البروميثيوسيّة المحدَثة. ذلك أنّ المالكين العرَضيّين للموارد التي يمكن تبديدُها سيسلكون على الأرجح مع عُدماء الطاقة، مسلك المتعجرفين الاستغلاليّين،

وفي أفضل الأحوال مسلك الأبويّين، مثلما كان يسلك قديماً، الأسيادُ في عصر الإقطاع، مع عبيدهم ومماليكهم.

في مؤتمر القمّة الأخير للدول المنتجة للنفط وأباطرة البترول الذين قدموا من مختلف البلدان، في إطار قُدّاس-النفط بأبو ظبي (أبيدِكْ) مع مطلع شهر نوفمبر، -حيث يُفترض أنّه قد اجتمع ما لا يقلّ عن مئة وخمسين مبعوثا للتقدّم غير المعقول، كان قد طُولب بلا لبس، باتّباع خطّ السياسة النفطيّة الهجوميّة في المستقبل، من دون اعتبار ولا حتّى ذكْر المخاطر التي يشير إليها علماء المناخ في ما يتعلّق بـ«عوامل السقوط في الهاوية» (ومثاله المناطق التحتأرضيّة المتجلّدة، حركة تيّار شمال الأطلسيّ، الرياح الموسميّة، الغابات الاستوائيّة ذات المناخ الرطب، دِرْعا غرينلانْدْ وأنتَارْكتيكا الجليديّان، إلخ): طالما أنّه يوجد طلبٌ بالقدر الكافي، ويعتبَر حدوثُه مؤكّدا، يبقى محسوما الانتقال من قمّة إلى أخرى، بغنائم استخراج الذخائر الغنيّة بالكربون من الأدغال التحتأرضيّة. لا أحد في هذا المجمع، يريد أن يكون على علم بـ«نهاية الوفْرة» التي هي منذ أعوام، محلّ نقاشات في بعض بلدان الشمال (وكان الرئيس الفرنسيّ إمانويل ماكرون قد صاغها في ٢٤ أوت ٢٠٢٢، في عبارات أثارت ضجّة كبيرة). ولا يخفي المتحدّثون باسم العالميّة المهووسة بالإحراق نيّتَها في تكييف قطاع المحروقات السائلة والغازيّة بحسَب المتطلّبات المتزايدة لسوقٍ عالميّة موثوق من عمهها وجشعها. ترتفع درجات الحرارة، والمؤتمر يرقص. فلو دُعي أيضا مبعوثو الوكالات الكبرى للأمم والصناعات

المستخرِجة للفحم، لجمَع حدَثُ أبو ظبي الهيئات العامّةَ لل«إنسانيّة» المهووسة بإحراق الطاقة الأُحفوريّة. ولكن يتبيّن أيضا مع غياب نخبة الفحم الحجريّ أنّه ليس «الإنسان» بصفته نوعا بعامّة، هو الذي أنتج الانتقالَ إلى ما يُسمىٰ بحقبة التأثير البشريّ على جيولوجيا الأرض؛ بل إنّها نخبةٌ محرِّقةٌ من المهندسين والشركات التجاريّة العاملة بين القارّات، هي التي أنشأت انطلاقا من أوروبّا مع نهاية القرن الثامن عشر، ثمّ من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، شبكةً عالميّةً من التبَعيّات الطاقيّة التي تكاد تكون محتومة ولا يمكن إلى حين إشعار آخرَ، عكسُها[1]. في هذا السياق، كان قد مثّل حدثا مفتاحيًّا اللقاءُ بين الأمير العربيّ ابن سعود والرئيس الأمريكيّ فرانكلين د. روزفلت، على متن السفينة الحربيّة الأمريكيّة كوِينْسي، في ١٤ فيفري ١٩٤٥، وعلى ضفّة البحيرة المالحة في قنال السويس، لقاءً كان قد أُبرم فيه ضربٌ من الحلف الشيطانيّ حدّد معالمَ القرن المستهلِك للطاقة.

لا يمكن تجاهل الرسالة التي وجّهها إلى العالَم المؤتمرُ

(١) من هذا المنظور يبدو من الأصوب الحديث عن حقبة تأثير الطاقة على الأرض بدلا من حقبة تأثير الانسان عليها. أمّا ي. موور فقد أخضع للنقاش عبارة «حقبة تأثير رأس المال على الأرض» من باب الإيحاء بأنّ للتحليل الماركسيّ من حيث تعيينُ فاعل يتحمّل المسؤوليّة الرئيسةَ ويُدعى «مالكَ رأس المال الأحفوريّ»، مصداقيّةً قائمة. وأمّا إنياس ديفيش فيحيّي قرّاء كتابه الملهِم حريقٌ. إشكاليّةٌ منسيّة (أمستردام، ٢٠٢١) بعبارات: «مرحبا بكم في حقبة الشمس!» ويدعو إلى تطوير «سرديّةِ نارٍ جديدة».

الأخير الذي عُقد في عاصمة الإمارات العربيّة المتّحدة: على مرّ نصف قرن آخرَ، يُفترض أنّ سوق الاستخراج سيجني أرباحا طائلة، شريطةَ أن يوجد استعدادٌ لاستثمار البلايين في تحديث معدّات الحفرَ والاستخراج. وتتّجه بعض الأنظار إلى القارّة السوداء التي يُقال عنها إنّها لم تستغَلَّ بالقدر الكافي في ما يتعلّق بالطاقة الأحفوريّة؛ ومن ثمّ تعِد تنقيباتٌ جديدة بأنْ تجعل من إفريقيا، في ما أبعد من نيجيريا، محطّةَ محروقات جديدةً للشمال بمجمله ولمنافسه الصينيّ. ويُقال إنّ الاستثمارات المعلَن عنها معقولةٌ طالما أنّ الأمم المتقدّمة تكنولوجيًّا كما الاقتصاداتِ الشعبيّة التي استدركت أمرَها، تتمسّك بالدفاع عن مستوى المعيشة الذي أدركته، وبوعود تحسين أحوال فئات سكّانها الهشّة اقتصاديّا، ومن حيث لا تُضطرّ إلى اتّباع ممارسات أخرى، بل تواصل السير على الطرق المألوفة في إنتاج الطاقة التي تقوم على استغلال الأرض وتقانة النّار. ومن بين منتجي الطاقة الأحفوريّة الذين لم تُحبط عزيمتُهم، يوجد من يصنعون لأنفسهم سريرةً طيّبةً بأن يشيّدوا من باب التحوّط، منظوماتِ مدَّخرات احتياطيّة بالاعتماد على تكنولوجيات الجيل الأخير، وبخاصّة طرق استخدام الطاقة الشمسيّة والهيدروجين، كما لو أنّهم يرغبون في التعبير صراحةً عن مدى تفهّمهم لخطورة الوضع. فتراهم يُراهنون بواقعيّةٍ تهكّميّة، على أنّ كبار المستهلكين إلى الآن، سيتمسّكون إلى أطول وقت ممكن، بالوضعيّات القائمة (سواء تعلّق الأمر بـ«إواليّات الطَماع» أو لا)، في حين يتعيّن على الأمم الطلائعيّة القليلة التي أخذت

على محمل الجدّ التحوّلَ الإيكولوجيَّ، أن تخشى الخروجَ منتصرةً من سباقٍ يبوء لا محالةَ بالهزيمة الاقتصاديّة. وعليه، من اليسير أن نجد أنفسنا أمام الحالة التي تصدُق عليها الجملةُ التي لم تُمتحَن بعدُ: «الأوّل هو الذي تعضّه الكلاب». وإذا كنّا في خمسينيّات وستّينيّات القرن الماضي نتحدّث عن «عصر سوء الظنّ»، فإنّ الحاضر يتّخذ أكثر فأكثر وبقوّة، ملامح عصر التكذيب والتفنيد. وحين يغدو التفنيد (الذي دُبّر طيلةَ عقود) غيرَ كاف، يحلّ محلَّه انفصامُ الوعي والكلبيّة.(٢)

إنّ الصراع بين المدّخِرين وبين المسرفين، أو بين المستعدّين للتقشّف وبين المدافعين عن حقّ البشر في الطّيْش الذين أخذوا بعدُ داخل المجتمعات «المابعد صناعيّة»، يتشكّلون أحزابا ذاتَ معالم غامضة، سيشغَل على الأقلّ لمدّة قرن، بالَ السياسيّين والتقنيّين والخبيرين بالمداواة ومنظّري الإتيقا. ذلك

---

(٢) أنظر بيتر سلوتردايك، انعكاساتٌ ابتدائيّة. اعتباراتٌ سيكوسياسيّة حول أشكال التحيُّر الأوروبيّة، باريس ٢٠٢١، وبخاصّة فصل: «أولئك الذين يرغبون في أن يُخدَعوا»، ص. ٧-٦١. وكانت صيغةٌ أولى لهذه المقالة قد صدرت في ٢٩ ديسمبر ٢٠١٨ في جريدة زوريخ الجديدة.
كان الباحث الأمريكيّ في مسائل البيئة، مايكل شِلّنبِرْغر، قد قدّم في كتابه القيامة، لن تقوم أبدا! لماذا يصيبُنا مناخ التخويف بالمرض؟ (مونشن، ٢٠٢١)، محاولةً في ردّ الإشكال البيئيّ-المناخيّ إلى مسألة تقدّم تقنيّ، من حيث أوصى بخاصّة، باستكمال صنع طاقة نوويّة «نظيفة وآمنة». ويصف الحركة المناهضة للتغيّر المناخيّ، بالهلع المصطنَع الذي توطّئ له وسائل الإعلام. وكانت محطّتا فوكس نيوز وبرايْتبارت نيوز وجريدةُ دي فيلتْ، قد أشادت بكتاب شلّنبرغر.

أنّه يكوّن ولا ريب، بكيفيّة لا عهد لنا بها من قبلُ، رحمَ مهَن وحرَفٍ ديماغوجيّة عابرة للقوميّات.

كان برونو لاتور (١٩٤٧-٢٠٢٢) قد استحدث لهذا الصراع نطاقا ضمن سيناريو من جنس جديد. فمنذ أكثر من عقدٍ، كان قد رسم في سياقِ سلسلة من تقويمات الوضع الراهن، من عام أزمة إلى عام أزمة[٣]، ملامح «حرب» تخرج عن كلّ ما شكّله التاريخ السابق للحرب وصراع الطبقات: في تلك «الحرب» يواجه البشر الذين يعملون على تصوّر أنفسهم أبناءً لـ'غايا' (بعبارة غير ميثولوجيّة: أي بصفتهم السكّان المنهمّين بالمنطقة الحرجة التي هي الحزام الحيويّ الرفيع للأرض الذي يجمع المحيط الحيويّ والمحيط الهوائيّ و«مجال الوعي»)[٤]، عملاءَ عولمة خبيثة لا يسهوْن في ما يتعلّق باستغلال الأرض، عن اختياراتهم الجيومناخيّة، من مثل الانتقال إلى نيوزلندا أو مناطق أخرى تتمتّع من حيث موقعُها، بامتيازات الجزر والمناخات المحيطيّةِ، وعند الضرورة، الانتقال إلى عالمٍ مكيّف داخل البلّور، كما يفعل ميسورو الحال في الأصياف العربيّة، - بل الانتقال حتّى إلى خارج الأرض، كما لو كانوا منذ القِدم،

(٣) برونو لاتور، الصراع لأجل غايا. ثماني محاضرات في النظام المناخيّ الجديد، برلين ٢٠١٧؛ بيانٌ أرضيٌّ، برلين ٢٠١٨؛ أين أنا؟ دروس مستقاةٌ من الحجْر الصحّي، برلين ٢٠٢١؛ (مع نيكولاي شولتس)، في سبيلِ بعث طبقة إيكولوجيّة. مذكّرةٌ، برلين ٢٠٢٢.

(٤) برونو لاتور/بيتر فايْبل (تحرير)، منطقة حرجة: علم الرُسوّ إلى الأرض وسياستُه، كامبريدج، ٢٠٢٠.

سكّان كواكب أخرى يستأنفون مسيرَهم بعد الفراغ من نهب الأرض.

وكما يفسُر لاتور ذلك، «نحن أنفسنا»، إلى حين إشعارٍ آخرَ، مثل تلك الـ«كائنات غير الأرضيّة»،- كلّما حملْنا النظّارات التي صنعتها العلوم الحديثة ولا تُرينا الأرضَ من الخارج، كما لو أنّنا لا ننتمي فعليًّا، إلى سُلاّنها العنيدين الموهوبين بالقدرة على الهروب والتنصّل، الخبيثين من حيث توقُهم إلى الهيمنة. وحين يُدرج لاتور من باب الإشارة إلى مخلوقات غايا المتيقّظين، عبارة «طبقة إيكولوجيّة»، تدخل في اللعبة أصداءٌ ماركسيّة، مع فارق أنّ «الوعي الطبقيّ» المحوّلَ يجب أن ينتُج هذه المرّة، عن تفهّم موقعنا من مسار التدمير.

لا يهوّن لاتور على نفسه المهمّةَ مثل الناشط المناخيّ السويديّ أندرياس مالْمْ الذي يطالب مباشرةً ومن حيث يعتنق نبرةً لينينيّةٍ خضراء، بأنْ تحطّم الدول الاتّحاداتِ البتروليّة الفاعلة على صعيد عالميّ، ويحثّ لأجل ذلك على اتّباع استراتيجيّة التخريب التي ما تزال مؤقّتًا، سلميّةً، لكي يُضغَط على حكومات البلدان المصنّعة وعلى رأس المال البتروليّ. أمّا الهدف على المدى البعيد لهذه النضاليّة الجديدة فلا يعدو كونَه فرضَ دكتاتوريّة مناخيّة من المؤسف أنّه لا مناص منها،- هي لا بدّ منها لأنّ فتور التدابير التي يُشهر بها أكثر من العمل على تفعيلها لا يمكن أن تُعدَّل إلاّ بتدخّلات راديكاليّة، أو بالأحرى بواسطة النزوع إلى التدخُّل الراديكاليّ.

ويقتضي الدليل على قوّة الفعل اللاّجَبريّ الذي تنهض إليه

المجموعات البشريّة النشطة إذ تذهب إلى الأقصى، تفصيلَ القول فيه طورا طورا: ما يبدأ باللصاق الحاصر وهجمات توسيخ أمّهات الآثار الفنيّة في العالَم، سرعان ما يغدو راديكاليّا؛ ذلك أنّ الاعتداءات على خطوط الأنابيب تكون افتراضيّا، قد بُرمجت بعدُ[٥]؛ وإذا ظلّ مثل هذا التدليل على فعاليّةِ «مبرهَنة أنّه بمقدورنا نحن أنفسنا أن نفعل شيئا مّا» غيرَ كافٍ، يُفترض أن تتبعَه طلقات الرصاص بما هي حجج تقدح في الموظّفين السامين لنُخبة التنقيب عن ثروات بواطن الأرض،- فحتّى ثورةٌ محافظة ليست البتّة نزهة في الغابة.
وحين ستكون العمليّات وأشكال التعبئة التي من هذا الطراز قد أثارت ما يكفي من القلق والاضطراب بين صفوف الذين يقودوننا إلى الكارثة، لن يتعيّن إلاّ انتظار اليوم السانح الذي لن يستطيع فيه لينينٌ أخضرُ تعاضده تشيكا خضراء، إلاّ الاستيلاء على السلطة، في أمّة غربيّة، ومن الأفضل في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ولما لا أيضا في ألمانيا الاتّحاديّة، البلدِ المتقلقِل إيكولوجيّا. وسيتعلّق الأمر حقًّا، بمماثِلٍ أخضرَ لفكرةِ «اشتراكيّة في بلد واحد» التي كان بوخارين قد همس بها ذات مرّةٍ في أذن ستالين بعد وفاة لينين. كذلكَ يعمل جيلٌ جديد من الملقّنين همسًا، منتشرين في أرجاء العالَم كلّه، على تحيين السانحة العظمى.

---

(٥) أندريلسْ مالْمْ، في كيفيّة تخريب خطّ أنابيب. تعلّمُ النضال في عالَم يحترق، برلين ٢٠١٧.

أمّا ما يتبع فيبقى ذا وزنٍ، إذا ابتغينا التأويلَ المناسب لمفهوم «طبقة إيكولوجيّة»: على خلاف مالْم المعجَب بلينين، يراهن لاتور على سبيل غير عنيفة، هي سبيل الاسْتيعاء الجماعيّ على نطاق واسع، تحت ضغط العاجل الزمنيّ ووُجوب الفعل. ومع أنّ لاتورْ لم يفصح القول عن مسألة من سيدافع بكيفيّة أفضل عن المصالح المعقولة للطبقة الإيكولوجيّة، هل هم المهنيّون الثوريّون الإيكولوجيّون أخلاف لينين أم شتّى الوكالات الخبيرة بالأمر، فإنّه على المرء أن يسلّم بأنّه قد حمل على الدوافع الإيكولوجيّة بما هي كذلك القدرةَ على إثارة شيء مّا من قبيل ضروبِ ديموقراطيّة اشتراكيّة خضراء تنتشر على صعيد الأرض. وستكوّن هذه حزبا قُزحيّا لا نظير له يتكوّن من أشخاص وجمعيّات ومؤسّسات يعتبرون أنفسَهم بوضوح وفي ما أبعد من الفوارق الثقافيّة والدينيّة والجنسيّة، قيّمين وحافظين وباحثين ومهندسين إيكولوجيّين: أي يدركون أنّهم مصمّمون على عدم هدم القواعد الحيويّة لمعظم أشكال التساكن في الكوكب.

لو أردنا أن ننقل رسالة لاتور إلى لغة الصراع التليد بين أجنحة الاشتراكيّة، لتعيّن القولُ إنّه كاوْتْسكي يفنّد من جديد، الرفيقَ لينين[٦]. من يقول «حزب إيكولوجيّ»، يكون منه على

---

(٦) أنّ أندرياس مالْم تفهّم جيّدا التحدّي، فهذا ما يتبيّن من خلال كتابه نذير عاصفة. الطبيعة والمجتمع في عالَم يصطلي (برلين ٢٠٢١)، الذي لا يقدّم غيرَ اشتباك طويل مع مذهب لاتورْ. ويُعاب عليه طبقا للتقليد اللينينيّ الأمثل، النزوعُ إلى المراجعة والفيتيشيّة واللاعقلانيّة، و«ختاما»،

بال أنّ مشروعيّة السياسة المستقبليّة تتأتّى من أغلبيّةٍ فاهمة يكوّنها مواطنون قلقون، وليس من استيلاء أقليّة متطرّفة على السلطة، أقليّةً تدّعي معرفةَ كلّ شيء على نحوٍ أفضلَ ممّا يعرف الآخرون. ومن ثمّ، اتّحادٌ سوفياتيٌّ أخضر، كما يمكن أن يتنزّل ضمن خطّ الجناح الأكثر راديكاليّةً للتطرّفيّة المناخيّة، لن تستوْفي حقَّ معالجة المشاكل الرئيسة لأيّامنا هذه. وفي المقابل، لقد حان وقتُ سياسةٍ تقرّ فيها الدول الحرّة الباقية، سواء كانت غربيّة أو غير غربيّة، العزمَ على ضبط صناعات الطاقات الأحفوريّة، بواسطة طاقة الإرادة. فدوافع لاتور لا تستهدف أقلّ من نشوء ديموقراطيّات إيكولوجيّة متفرّعة على الصعيد الكونيّ وحمّالة لعناصر المحافظة والاشتراكيّة والليبراليّة، - وتدمج الأحوال المحليّةَ كلّها.

لكي نوضّح الطابَع غيرَ الطوباويّ لهذه الاعتبارات التي تبدو على أنّها تستغرق في الطوباويّة، لا بدّ من الاطّلاع على

أحوال تفكير تقريريّة. يقدّم الصراعُ خطَّ جبهةٍ إبستيمولوجيّا حادّا: يتقابل مع المنطق التشاركيّ، الانغماريّ والثقافويّ للاتورْ، المنطقُ الموضوعيّ، الأداتيُّ والطبيعانيّ لمالْم. وعند الكاتب السويديّ، الاستيلاء على السلطة ضمن منظومة الطاقة الأحفوريّة، يبدو كما هو الاستحواذ على سلطة الدولة زمنَ لينين، على أنّه السانحة الأخيرة للبرهنة على أنّ البشر هم ذوات التاريخ، وأنّه لم يكن عبثا أنّ ديكارت كان قد وصفهم بأسياد الطبيعة ومالكيها. لذلك يُصادَر ضدّ لاتورْ، على تخارج الطبيعة عن المجتمع، ومن ثمّ يمكن بيان أنّ الحرب ضدّ مستغلّيها هي مسألة اجتماعيّة-سياسيّة بحتٌ. وإذًا: «القليل من لاتور، والكثير من لينين». (المرجع نفسه، ص. ١٤٦).

المفهومات والرموز الأساسيّة. ذلك أنّ العبارات التي يستعملها لاتورْ، أو بالأحرى يستأنف تفعيلها بكيفيّة نتّاجةٍ، من مثل 'غايا' (حسَب جيمس لوفْلوكْ) و'منطقة حرجة' (حسب غيْل أشليه وجيرومْ غايّارْدِهْ)، يمكن أن تبدو للوهلة الأولى، غيرَ دارجة، بل ميثولوجيّة، وبشكلٍ غامض، فوقْجغرافيّة. فدلالة هاتين المفردتيْن تشدّ انتباه كلّ الذين يُقضّ مضاجعَهم بشكل متنام، ما يُشار إليه عادةً، بعلاقة «الانسان والعالَم المحيط به»، وهذا قلقٌ يوازيه نموّ الوعي بشرْكةِ سكنِ كلّ حياةٍ كانت في القديم أرضيّة وغدت مجرّات. وتنافس المفردتان، الميثولوجيّةُ كما الإيكوجيولوجيّةُ، مفهومَ «البيئة» الذي تُصوّر في المقام الأوّل من منظور بيولوجيّ أو ميتابيولوجيّ، ثمّ طُبّق سوسيو-إقتصاديّا أو سياسيّا: وبالأحرى، تُظهر المفردتان على نحو كتوم وغير سجاليّ، التزويق الإيديولوجيّ للفكر البيئيّ الذي يقول بأنّ كلّ «محيط» يجب أن يُتصوَّر من منظور مشاريع التحقّق الذاتيّ للمجتمعات المصنّعة، باعتباره «مورد ثروات» أو إحالةً على «مورد ثروات». وعليه، ما يقع ضمن «العالَم المحيط» بالإنسان، يجري في المقام الأوّل، مجرى المفهوم الشامل لإمكانيّات الاستغلال وأبعاده. على هذا الخطّ يُتصوّر صونُ البيئة على أنّه في المقام الأوّل، صونُ الموارد. ويمكن أن يُطعن في مفهوم «العالم المحيط» من جهةِ استعماله المتواطئ، أنّه يحمل تعسّفا في استعمال مفردة «عالَم» التي يتضمّنها تعزيزا لإسناد الأشياء كلّها إلى المركز الذي يأمر ويُنتج ويستهلك. فالمحيط في العالَم المحيط يدلّ على دائرةِ «أحوال» يعتقد

الدازيْن من خلالها أنّه «معطى» حولَ، أي مُحاطٌ، أحوالا تقع فيها المواردُ ضمن قُطر ممارسات الاستغلال الصناعيّة التي تقوم على مركزيّة الانسان. ومن ثمّ سيكون العالَم في كليّته، مصلحةَ تزويدٍ تشتغل داخل مؤسّسةِ «أخضِعوا الأرضَ»[٧]. عندما نتحدّث عن «العالَم المحيط»، لا بدّ أن نتساءل هل يتعلّق الأمرُ بعلاقةِ اعتراف وعناية للسكّان بفضاء عيشهم أو بأنّ العالَم المحيط لا يعدو كونَه شفرةً تشير إلى امتصاص كلّ ما هو معطى من حولنا، في الثقب الأسود للمسار المركزيّ.

ويُفترض أنّ مفهوما متدبّرا للعالَم يتصوّر العالَم باعتباره المفهوم الشامل للإنفتاح، - انفتاحا يقتضي التزاما بعينه، أي فضاءَ انغمار وغوصٍ انتشائيّيْن نجد فيه أنفسَنا في وضعيّةٍ نلتقي فيها موضوعاتِ القلق والاستنكار كما رؤى الجميل أو الجليل، ومضانَ المعرفة، وكذلك الصناعات المشتركة للحقّ ومقتضيات العدْل. فمَن يتلفّظ بمفردة «غابا» أو يستعمل عبارة «منطقة حرجة»، إنّما يتخلّى عن وهم المسافة الأنطولوجيّة. ومن ثمّ يتّضح بلا إسهاب في القول أنّ ما يُدعى فلسفيًا، منذ ١٩٢٧، «كينونة-في-العالَم»[٨]، إمّا أنّه صياغة جوفاء، أو يعني كينونةً-على-سطح-غابا وكَيانا في المنطقة الحرجة.

وبيّنةٌ بنفسها العلّةُ في أنّ أفكارا من هذا القبيل إمّا أن نستمرّ

---

(٧) كارل أمري، نهاية العناية الربّانيّة. العواقب النِقميّةُ للمسيحيّة، هامبورغ ١٩٧٢.

(٨) تلك هي سنة صدور الأثر الرئيس والباكر لهيدغير: الكينونة والزمان.

في عرضها إلى ما لا نهاية له أو تُختم بأسلوب فظّ. فالاختتام الفظّ مفروضٌ بنفسه. ولنستعملْه إعلانا على طريقة الحدّ: كلّ طريقة من طرائق الصياغة اللامسؤولة لسياسة الطاقة والعالم في المستقبل لا يمكن من حيث ملمَحها الرئيسُ، أن تبتغي إلاّ تطبيق دعوةٍ ما بعد بروميثيوسيّة إلى اشتراكِ أكبر عدد ممكن من البشر، سواءٌ عُدّوا من المنتمين إلى «طبقة إيكولوجيّة» أو لا، في خدمة ما يُتدبَّر حريقا إراديّا. أَيا مُطْفِئي الحرائق من كلّ البلدان أخمدوا النيران!

الفهـرس

هذا الكتاب

أيُّ(ت)ها القارئ(ة)،

هاكَ-هاكِ كُتيِّبًا «كلْبيًّا» مُخجِلًا من حيث نبرتُه الكارثيّةُ اللاذعة كما من حيث أغراضُه التي تدور كلّها حول «هبة النّار» البروميثيُوسيّة وندامةِ الواهب بل استيحائه من جرّاء رعونة الموهوب وطيْشه: نحن لم ننفكّ نحرق الأرض وما تحتها، حدَّ أنّنا بتْنا كائناتٍ ما زالت تُضرم النيران وتبدّد كيفما اتّفق، موارد بواطن الأرض، فتأتي على الأخضر واليابس بلا وجلٍ ولا رويّة. فما «نعتبره حضارات حديثةً، هو في الواقع الفعليّ، مفاعيلُ حرائق غابيّة يُشعلها النّاسُ اليومَ في بقايا قَدامة الأرض؛ والبشريّة الحديثة هي جماعةُ حرَقةٍ يُضرمون النّار عمدًا في الغابات ومستنقعات الأحْثاء».

وإنّه لفي سياق هذا «الاحتراق الكبير» الذي قد تتحوّل فيه النيران الدائمة فوق الأرض وتحتها، إلى 'مكناتِ قيامةٍ هوجاء'، يستحضر سلوترداَيْك أحدَ جبابرة اليونان، أعني بروميثيوس الجبّار الحمّالَ للنّار ومناصرَ الخلق الذاتيّ للإنسان: ينزل الجبّار من صخرة القوقاز فيعاين مشهدًا غريبًا تغيّرت فيه أحوال العالَم والأشياء، إذ أنّه «يجد نفسَه أمام بشريّة تكاد لا تشبه في شيء تلك التي كان قد رغب في إنجادها بأنْ وهبها النّار».

الغلاف : سكينة صلوق

ISBN 978-9922221472

9 789922 221472